١٠٥١
دار م. النحاس
كبير
1051
HARLEQUIN

العروس الاسيرة

روز ماري كارتر

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة

العروس الاسيرة

روز ماري كارتر

«أريدك ان تصبحي زوجتي.»
كان كايل قد سألها الزواج مرة ومرتين، وهذا خير دليل على صدقه. لكن ألم يجدر به أن يقول لها انه يحبها فيثبت لها مدى حسن نيته؟
لم تكن ليان لتشك في ذلك قبل سبع سنوات حينما شهدت قصة حبهما نهاية مأساوية ومؤلمة.
لم تر ليان وجه كايل مذاك الحين، فكيف تتأكد من أنه لم يظهر فجأة إلا بغية الانتقام؟ وما هي الدوافع الشخصية التي حدت بها إلى الموافقة على هذا الزواج؟

ثمن النسخة:
٢٠٠٠ل.ل
2000 L.L

سأل كايل ليان: «أتتزوجين مني؟»

ما لبثت تلك الكلمات أن أفعمت قلبها سعادة ما بعدها سعادة، فلم يتبادر إلى ذهنها إلا أن تقول «نعم» وقد شغفها سحر عينيه.

رفعت ناظريها فاذا به يرنو إليها.

سألها ثانية:

«أتتزوجين مني؟»

سرعان ما عادت بها الذكرى إلى الماضي، فمدت يديها محاولة الابتعاد عنه.

«أبداً!»

Abir 1051

العروس الأسيرة

روزماري كارتر

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

روزماري كارتر

ولدت روزماري كارتر في جنوب افريقيا، لكنها عاشت لسنوات طوال في كندا مع زوجها وأولادها الثلاثة. كانت تقطن منزلاً يقع في الريف، على مقربة من الصخور الشامخة، إلا أنها ما انفكت تضمر حبها لأدغال جنوب افريقيا التي كانت مصدر وحي لرواياتها. روزماري وزوجها يستمتعان بالحفلات الموسيقية وبالمسرح والأوبرا وتسلق الجبال، ولطالما شغفتها المطالعة، مما مهد لها الطريق أمام محاولاتها في تأليف الروايات.

www.elmanaar.com

الفصل الأول

ما ان لاح السياج الأبيض حتى خفّفت ليان ديبوا من سرعة سيارتها. كانت قد امضت في قسم العلاقات العامة التابع لمصنع الألبسة الذي تعمل فيه يوماً حافلاً بالعمل. غالباً ما كان القلق يساورها في تلك الفترة من بعد الظهر، حينما تعود إلى البيت، فترى جدها ينتظرها عند نافذة بيتهم الصغير. بيد أن هذا اليوم مختلف عن سائر الأيام، فقد تم بيع المزرعة في أول الأسبوع، وهي تدرك ان المالكين الجدد باتوا على وشك الوصول والاستلام، وأن المسألة لم تعد إلا مسألة وقت. كانت ليان تجهل أسماءهم لأن البيعة دبرت عن طريق شخص ثالث، لكنها وعدت مارتن سيمبسون المحامي بأن تسلمه المفاتيح كلها غداً.

كانت هذه فرصتها الأخيرة كي تودع المكان، الذي كان يوماً مسكناً لها، وداعاً خاصاً.

مالت الشمس نحو الغروب فيما كانت تقود السيارة عبر المداخل المترامية المسماة هاي فالي. والمكللة بقنطرة من حديد تمتد من عمود إلى آخر.

أجيال وأجيال من عائلة ديبوا عاشت في تلك الأرض مذ قدم بيار ديبوا من فرنسا إلى جنوب افريقيا قبل حوالى مئتي وخمسين عاماً، لذا يبدو من المستحيل ان يصدق أحد ان هذه الأرض قد انتقلت إلى عائلة أخرى.

قادت ليان السيارة ببطء على طول الطريق المؤدية إلى

المنزل الأساسي والمظللة بأشجار السنديان الثخينة الجذوع التي كان بيار ديبوا قد غرس بعضاً منها بنفسه. وترى على أحد أطراف المنزل باحة فسيحة من القرميد شهدت في الماضي حفلات ضخمة سمعت عنها ليان الكثير من الحكايات، باحة ازدحمت فيها عربات الخيل التي كانت تنقل الضيوف القادمين من كيب تاون، ولما استلم جداها هذا العقار، كانت الخيول قد استبدلت بالسيارات كوسيلة للنقل، إلا ان افراد العائلة لم يفتقروا إلى فسحة لايقاف السيارات قرب المنزل.

أضحت الباحة القرميدية خالية، وبدا المنزل وكأنه مكان مهجور لم يقطنه أحد منذ زمن. كانت النوافذ في أسفل الجزء الأعلى من الجدار المتباهي موصدة ومغلقة، وقد نمت النباتات نمواً سريعاً وكست الحائط، فما من أحد يشذّبها، تساءلت ليان ان كان المالكون الجدد سيحبون هذا المكان كما أحبته عائلة ديبوا قبلهم.

ترجلت من السيارة ومشت نحو المنزل. أخذت المفتاح المزخرف الرأس وأدخلته في قفل الباب الخشبي الضخم. وما ان سارت في المدخل العتيق حتى انتابها شعور بأن النهاية أزفت، وبأن تاريخاً انقضى... ان أتت إلى هذا المنزل بعد اليوم، فهي لن تدخله إلا كضيفة.

راحت تتنقل ببطء من غرفة إلى أخرى. ما من زاوية في هذا المنزل إلا واحتضنت ذكرى من الذكريات التي تألقت بأثاثها الأنيق ولوحاتها الثمينة وسجادها الفاخر، والمطبخ الريفي، ومكتب جدها المكتنف بجدران مزدانة بألواح خشبية، تتوسطه طاولة مصنوعة من الخشب

القديم، وغرفة النوم التي رقد فيها والداها لسنوات قليلة.

بلغت ليان غرفتها العتيقة. لو أغمضت عينيها، لارتسمت في مخيلتها صورة سريرها بأطرافه الأربعة، يعلوه غطاء مضرّب زهري اللون، الستائر المزدانة بالكشاكش والرف الذي وضعت عليه مجموعة دماها الصغيرة.

سارت نحو النافذة وفتحتها، لفت نظرها شق ظاهر على العتبة الخشبية. انه الأثر الذي تركه حذاء كايل حينما دخل هذا الأخير إلى غرفتها ليلاً، وزلت قدمه، فخشيا ان يكون الصوت الذي أحدثه سقوطه قد أيقظ جدها. وظل المنزل غارقاً في السكون، لكن كايل لم يتأخر لأنه كان هو وليان يخافان من أن يدخل جدها عليهما، فما لبث ان غادر الغرفة عبر النافذة مرة أخرى.

كايل... يكبرها بست سنوات، طويل القامة، أسمر البشرة، نحيل القد، فيه الكثير من الوسامة والمرح، وقد اغرمت به ليان حتى الجنون. كانت آنذاك في ربيعها السابع عشر وقد ألفت نفسها منجرفة في موجة عاتية من الهوى لم يقويا هي وكايل على مقاومتها.

صاح جدها المجنون على أثر الحوادث التي حصلت في تلك الليلة الرهيبة: «هذا هو الهيام! هيام فتاة بشخص فظ لا يأتي نفعاً، ولن يرقى أبداً إلى مستواها!»

لم تقو ليان على مناقشة جدها، وقد صدمت وبلغ منها الحزن والألم كل مبلغ. بعدئذ، لما أصبح بوسعها ان تمعن التفكير ثانية، كان كايل قد رحل من دون ان يرسل اليها عنواناً تستطيع أن تتصل به عليه.

مرت سبع سنوات وليان لم تهم بأحد مثل هيامها بكايل،

فتساءلت ما كان حصل لو اختلفت الظروف وكان بوسعها أن تقاوم.

مررت اصبعها على طول الشق المحفور على الخشب، متلمسة خشونته على نعومة العتبة، هذا الشق الذي سيراه المالكون الجدد حينما يسكنون المنزل، فيباشرون معالجته ودهن الخشب، فيختفي الأثر وتختفي معه آخر ذكرى تركها كايل. أتمت ليان الرابعة والعشرين من عمرها، فحان الوقت كي تنسى ماضيها وتفكر في المستقبل، فمن الظلم أن تجعل من هذه الذكرى البعيدة معياراً لمقارنة كايل بكل رجل تتعرف اليه.

أغلقت النافذة وتمتمت كلمة الوداع للغرفة التي نامت فيها سنين طوال، وسرعان ما عادت وتبعت خطاها التي رسمتها في المنزل الخالي، وأدارت المفتاح في القفل للمرة الأخيرة.

كانت تتجه نحو سيارة هوندا، حينما توقفت وقد تولتها الدهشة. كانت تقف قرب سيارتها القديمة وشبه البالية سيارة أخرى فضية اللون أنيقة، تبدو غالية الثمن، وهي تعلم أنها ليست سيارة المحامي أو سيارة الموظف في الدائرة العقارية.

ما لبثت أن رأت رجلاً طويل القامة، أسود الشعر، عريض الكتفين، يمشي مشية واثقة. كان يرتدي سروالاً لونه أصفر شاحب، وقميصاً كحلياً. ثياب انيقة، لا بد من انها غالية الثمن. كانت الشمس المشرفة على الغروب تكتنفه، فبهرت اشعتها عيني ليان وحجبت عنها رؤية وجهه. لا ريب في انه شخص غريب، وليس لها أن ترى سيماءه لتدرك ذلك،

فهيهات أن يشبه أي شخص يعيش في هذه المنطقة الريفية الهادئة هذا الرجل، لكن ليان شعرت في الوقت نفسه انها ألفت رؤيته من قبل، مما أثار فضولها.

توقف أمامها وقال لها: «مرحباً يا ليان.»

نظرت اليه بارتباك سائلة: «هل تعرفني؟»

أجابها: «أنت أيضاً تعرفينني.»

قالت: «لا أظن ذلك. هل أنت متأكد من أننا التقينا من قبل؟»

قال لها بلهجة ساخرة: «ألا تذكرين؟» ورمقها بنظرة قاسية.

ما لبثت ليان أن غضبت. حقاً، ان هذا الرجل الوسيم واثق من نفسه كل الثقة.

سألته: «وهل لي أن أذكر؟»

أجابها: «وهل أغالي ان طلبت منك ان ترجعي بالذاكرة إلى سبع سنوات خلت؟ أم انك لا تذكرين الا الأشخاص البارزين في حياتك؟»

سرعان ما عرفته ليان، فانقبضت أعصاب معدتها وشعرت بأنها فقدت اعصابها قائلة: «كايل؟»

قال لها وهو لا يزال ساخراً: «تذكرين إذاً؟»

أجابته: «لم أنسَ قط.»

قال: «كنت على وشك ان تخدعيني.»

حاولت جاهدة أن تسيطر على نفسها، كانت تشعر بالطمأنينة وهي برفقة كايل الذي عرفته قديماً، لكن هذا الشخص الغريب القاسي يولد فيها شعوراً بالغضب، فتبدو مثيرة للسخرية.

«هذا المنزل منزلي ـ كان منزلي ـ وكنت تعلم أنك قد تجدني هنا.»

قال ببطء: «لقد تعمدت ذلك.»

«في حين انك... انك آخر شخص أتوقع رؤيته.»

قال متعجباً: «آه!»

أردفت ليان: «بالاضافة إلى ذلك، لقد تغيرت يا كايل. شتان ما بينك وبين كايل الذي أنكره.»

«هل تعنين انني لم أعد سائس خيل أشعث الشعر؟»

رفعت ليان ذقنها نافية: «أعني انك لم تعد الشاب الذي عرفته يوماً وقد كان في الثالثة والعشرين من عمره.»

رفع حاجبيه بوقاحة وقال: «عرفته؟ من يسمع كلامك يظن أن لا رابط بيننا إلا المعرفة. ان لم تخنّي الذاكرة، فعلاقتنا لم تقتصر على تحية عابرة كنا نتبادلها.»

شعرت ليان بالاحمرار يعلو وجنتيها، فأجابته: «لا أدري لِمَ أنت حاقد كل هذا الحقد؟ لقد تغيرت، هذا كل ما عنيته من كلامي، فشعرك أقصر مما كان، وكتفاك أعرض وأعرض. أدركت حينما ظهرت انني ألفت رؤيتك، لكن الشمس بهرتني، فحالت دون تبيني وجهك، وجهك الذي تغير ايضاً. أكثر من ذلك، فأنا...»

كفت عن الكلام. فحثها كايل على المتابعة قائلاً:

«هيا، تابعي.»

أجابت: «هذا ليس ضرورياً.»

«مع ذلك، أريد ان أسمع الباقي.»

أردفت معللة: «لقد تغيرت اطلالتك برمتها، وتبدل صوتك وحركاتك. ليس لي أن اتعجب من ذلك وقد مضت سبع سنوات على رحيلك، وهي على ما أظن فترة طويلة...»

«وقد جعلتها الظروف أطول وأطول.»

«الظروف؟»

«تجاهلي الأمر. قلت لك اننا أكثر من شخصين تجمعهما المعرفة وقد غيرت الموضوع. أنسيت ما كنا نقوم به معاً؟»

وبحركة لا ارادية، وضعت ليان يدها على معدتها، وما لبثت أن سحبتها قبل أن ينتهز كايل الفرصة ويأتي حركة ما. فقالت بصوت خافت: «لا، لم انس.»

أجابها: «لم أكن لأصدقك لو انكرت. كنت الحفيدة المعبودة، كنت الأميرة، الطفلة المدللة التي بوسعها ان تحصل على كل ما تريده. ومع ذلك، لم تكوني يوماً فتاة فاسقة، فقد كنت آنذاك، على ما أظن، أول رجل في حياتك.»

لم تجبه ليان، بل تظاهرت بالهدوء، فيما مد كايل يده بغتة إلى وجهها ووضعها على وجنتها. حاولت ليان أن تتجاهل الشعور الذي ولدته فيها هذه اللمسة. مضت سبع سنوات وهي تحلم بكايل وتتحرق شوقاً للرجوع اليه وها هو الآن هنا. الا ان هذا الرجل الوقح لم يكن كايل الذي عرفته آنذاك وقد كانا غرّان مرتبكان تيّمهما الحب، وما زالت ليان غرّة مع انها اضحت امرأة ناضجة، فهي لم تعرف الا القليل من الرجال، كما انها لم ترغب في توطيد علاقتها مع اي منهم.

من الواضح ان الوضع نفسه لا ينطبق على كايل، فلا ريب في انه عرف نساء كثيرات في حياته. ليس من شأن حقيقة كهذه، ان تؤلم ليان بعد مرور هذه الفترة الطويلة.

سألها باصرار: «هل كنت فعلاً أول رجل في حياتك؟»

تراجعت ليان إلى الوراء، مبتعدة عن يديه اللتين حاولتا التقاطها. فقالت بنبرة قاسية: «كنت في السابعة عشر من

عمري، أظن انه من الطبيعي الا اكون قد عرفت رجلاً قبلك.»

سألها بصوت ناعم: «ومنذ ذلك الحين؟»

«هذا السؤال لا يبرر أي اجابة، فحياتي لا تعنيك منذ فترة طويلة.»

لاحت في عيني كايل الداكنتين ومضة، فقال: «تتكلمين تماماً مثل حفيدة عائلة ديبوا العريقة، وها أنا أسمع مجدداً نبرة التكبر عينها.»

كايل آفيري الذي ولَد فيها ذاك الاضطراب كان انساناً محباً، لطيفاً ومرحاً، لا يعرف سبيلاً إلى القساوة والتهكم اللذين يتسم بهما الآن.

سألها ثانية: «هل أنت متزوجة؟»

أجابت نافية: «كلا.»

«هل من رجل في حياتك؟»

رفعت رأسها رداً على فظاظته: «حسبتك فهمت ان حياتي الشخصية لا تعنيك.»

«مع ذلك، فأنا أصرّ على السؤال.»

«حسناً، أعرف بعض الأشخاص.»

«هل أنت جادة؟ وهل أنت مخطوبة إلى أي منهم؟»

ضحكت ضحكة قاطعة وقالت: «يبدو انك تتجاهل ما قلت لك، فقد أوضحت لك أني لا أود التحدث عن علاقاتي الشخصية، وأنا لم أسألك عن النساء اللواتي عرفتهن في حياتك.»

قال لها ببطء: «هل يهمك هذا الموضوع؟»

كذبت عليه وقالت: لا، ليس بشكل خاص.»

«لا أظن انك تعنين ما تقولين.»

«لقد كنا صديقين في يوم من الأيام.» ثم سلمت قائلة بعدما رأت ضحكة ساخرة ترتسم على وجهه: «حسناً، لقد كنا أكثر من صديقين، لكن فات على ذلك وقت طويل، وقد سلك كل منا طريقه مذاك، و...»

قاطعها قائلاً: «أنا لست متزوجاً يا ليان.»

ضغطت بأصابعها على كفيها، وغرست أظافرها في جلدها الناعم. كان كايل يحدق اليها وعيناه تتحديان عينيها، وقد بدا وهو في الثلاثين من عمره أجمل وأجمل مما كان عليه وهو في الثالثة والعشرين، حينما كان شاباً يافعاً يعتني بالخيل. فأمسى وجهه المرح والمبتسم متسماً بالقساوة، وأضحى حنكه متسماً بالصرامة، وأصبحت شفتاه غليظتين، وكأنه يعرف الكثير عن النساء وعن الحياة، وقد تمتع بالتجارب التي مر بها، وصار حاجباه أكثر كثافة. وأحست ليان بأن ثيابه تكسو عضلات مفتولة وجسماً مفعماً بالقوة. لقد تغيرت ملامحه كلها الا عينيه، عينيه الواسعتين السوداوين المكحلتين بأهداب طويلة وكثة، عينيه الجميلتين.

هزت ليان كتفيها وقالت: «بعض الرجال يتأخر في الزواج.»

«ألا تريدين ان تعرفي لماذا لم أتزوج بعد؟»

«أريد فقط أن أعرف لم جئت إلى هنا؟»

ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «لقد كنت معجباً بهذا المكان.»

«هل علمت أننا بعناه؟ أأتيت لهذه الغاية؟ لتراه للمرة الأخيرة قبل أن تستلمه أيد جديدة؟»

امتنع كايل عن الاجابة، لكن ضحكته بدت أعرض وأعرض. ولاحت في عينيه ومضة شريرة. فإذا بها تفهم ماذا يحصل فتقول: «أنت الذي اشتريت هاي فالي؟»

تركها تنتظر عشر ثوان قبل أن يجيب: «أصبت.»

حدقت إليه ليان مدركة أن وحدها الصدمة التي أصابتها لما رأته على غفلة، هي التي حالت دون تبينها الحقيقة.

قالت بعفوية: «حقاً!»

«هل أنت منزعجة؟»

صححت له قائلة: «بل مندهشة.»

قال بلهجة جافة: «يحدثني شعور بأن كلامك مبطن.»

شعرت ليان بالغيظ يتفجر في أعماقها، فسألته: «لماذا يا كايل؟ لم هذه المزرعة بالذات؟»

«قلت لك لماذا. فقد سبق لي أن أعجبت بهذا المكان وأحببته.»

«لو أحببته فعلاً لكنت عدت إليه منذ فترة طويلة.»

«أنت لا تصدقين ذلك.»

كان يتكلم بلهجة ساخرة ولدت فيها بعض الارتباك.

«كنت زرته على الأقل.»

قال لها: «لقد عقدت العزم على ألا تطأ قدماي هذه الأرض إلا وهي ملك لي.»

سألته ليان: «كيف علمت أنها معروضة للبيع؟»

«لدي عميل يترقب لي البيعة.»

«تقصد جاسوساً.»

ضحك ضحكة قاسية وقال: «سمه كما تشائين، الواقع انني قررت شراء الأرض ما ان بلغني أنها معروضة للبيع.»

لقد أدهشت السرعة التي تم بها بيع هاي فالي، الشركة العقارية وجدّها على السواء. فبعد مرور أيام على طرح الأرض في السوق، تلقى جد ليان عرضاً للشراء، لكنه لم يف كامل الثمن المطلوب. الا ان العجوز فكر ملياً في الأمر وآثر قبول عرض متدن الآن على انتظار عرض أفضل قد لا يتحقق، فالانتظار وجه من وجوه الترف، لا يستطيع من نضب ماله ان يمن به نفسه.

شعرت ليان بغصة الندم تخنقها لما تذكرت الساعات التي امضتها تقنع جدها بالتخلي عن المزرعة. أما هو، فرغب بترك هاي فالي بهذه السرعة، فبدا لها الآن انه ربما كان على حق.

قالت لكايل: «لقد عقدت صفقة رابحة.»

أوضح لها قائلاً: «لم يرغمك أحد على القبول.»

«لا بد من أن جاسوسك أبلغك انه لم يكن بوسع جدي أن يحتمل الوضع الذي كان عليه فترة أطول.»

«لقد علمت ببعض المشاكل التي اعترضتكما.»

لم تلمح ليان في تلك العينين القاسيتين الداكنتين ولو ذرة اعتذار. ماذا يقصد كايل من كلامه هذا؟ أيقصد ذلك الاستثمار المشؤوم وتلك الديون المتفاقمة لتغطية المصاريف، والعاصفة المصحوبة بالبرد والتي ضربت آخر محصول وقضت على آخر أمل عقده آل ديبوا على انقاذ المزرعة. هل هذه هي المشاكل التي علم بها كايل؟

قالت له ليان ببطء: «لم يخطر على بالنا انك مهتم بشراء هاي فالي، فأنت لم تأت إلى هنا ولو لالقاء نظرة على المكان.»

أجابها معللاً: «لا حاجة إلى ذلك، فقد كان المنزل منزلي حتى بلغت الثالثة والعشرين، وقد عاش فيه ابي وجدي من قبله. لم أكن بحاجة إلى رؤية هاي فالي كي أدرك انني أريده ملكاً لي.»

«لكن لِمَ أبقيت العرض الذي قدمته سراً؟ ولِمَ اشتريت الأرض عن طريق شخص ثالث؟»

«حسبتك تدركين السبب.»

سألته بصوت متوتر: «وما هو؟»

«هل تحتاجين فعلاً إلى تفسير يا ليان؟»

«نعم، أود ذلك.»

«حسناً، فلنفترض أن جدك علم انني الشاري المرتقب، هل تظنين انه كان باعني هاي فالي؟»

«كايل...» لم تكمل ليان كلامها.

قال بنبرة قاسية: «إجابة مقنعة، أليس كذلك؟»

قالت بكل بساطة: «لا، لما كان باعك الأرض.»

«هذا هو تبريري يا ليان، فالعجوز ديبوا يفضل ان يراني مرمياً في جهنم على ان يتيح لي شراء مزرعته الغالية التي ورثها عن اجداده المتفاخرين.»

«لقد تقدمت به السن يا كايل، وساءت احوالنا خلال السنوات القليلة الماضية، ولا بد من انك تعلم أن جدي لا يتمتع بصحة جيدة.»

قال كايل بلهجة مجردة من اللطف: «لا تثيري شفقتي.»

«لقد احتمل جدي الكثير من الأذى يا كايل.»

«كان يؤذي غيره ولا يبالي.»

«أعلم انه لم يجدر به أن يطلب منك مغادرة هاي فالي.»

اشتدت القساوة على وجه كايل وفي نبرة صوته وهو يقول: «طلب مني؟ لم يطلب مني اي طلب يا ليان. لقد طردني جدك طرداً مذلاً، أعطاني ساعة واحدة فقط كي اجمع امتعتي وأغادر المكان، وقد طرد أبي أيضاً.»

شحب لون وجنتيها فيما راحت تحدق اليه وقد صدمها ما سمعته، فتمتمت قائلة: «لم أكن على علم بالتفاصيل.»

«لا ترمقيني بتلك النظرة البريئة! كان بوسعك ان تعلمي بما حصل.»

«لقد أدركت انه حصل سوء تفاهم...»

«سوء تفاهم؟ انه فعلاً تعبير مناسب لوصف ما حدث بيني وبين جدك. اما زلت تلك الأميرة يا ليان؟ كنت ادركت مدى سوء التفاهم المزعوم هذا لو اعطيت نفسك عناء اللحاق بذلك العجوز إلى الاسطبل في تلك الليلة، لو حاولت التدخل ولو محاولة بسيطة، ربما كنت وضعت حداً لما حصل.»

كانت كلماته قاطعة لاذعة ونظراته ثاقبة فيما هو يتكلم. فشق على ليان ان تواجه تلك النظرات المحدقة، فمن الواضح ان كايل لم يعلم بالأحداث التي وقعت تلك الليلة، وبما حصل خلال الأيام والليالي والاشهر التالية.

استهلت كلامها قائلة: «كايل...»

«ماذا إذاً؟» كانت النظرات الخاطفة التي ألقاها على وجهها مفعمة بالتلهف والاشمئزاز.

ترددت ليان. لم يفت الأوان كي تتكلم معه وتشرح له، لم يفت الأوان كي تفهمه ولو جزئياً السبب الذي أثار حفيظة جدها الرهيبة. بيد أن الرجل الذي كان يرمقها بنظرات

باردة جامدة لم يكن ذاك الشاب الذي احبته يوماً. شتان ما بين هذا الرجل المتكبر وذاك الشاب الحساس الذي شاطرها أحلامها وركوبها الخيل.

كان بوسعها ان تقول له الحقيقة، لا ريب، ولكن هل سيكون لكلامها وقع اقوى من خبر تدهور صحة جدها؟ لم تحسب نفسها قادرة على تحمل تهكمه، سيما اذا تعلق تهكمه هذا بمسألة أثرت فيها تأثيراً عميقاً، فلم تتوصل حتى الآن، وبعد مضي سبع سنوات، إلى بحثها مع كايل.

كان يحدق اليها حينما قال: «كنت على وشك ان تتكلمي.»

هزت كتفيها وقالت: «ما أردت قوله لم يكن مهماً.»

«هل أنت متأكدة؟»

ترددت مرة أخرى وقد همت إلى التكلم، فنظرت اليه محدقة إلى سيماء وجهه الجميل المنقبضة، وشفتيه الصارمتين وشكل ذقنه المتصلب.

قالت وهي تخفي ارتعاشة سرت في جسمها: «لن يبدل كلامي شعورك.»

«أتظنين ذلك؟»

أجابته وقد رأت أنه آن الأوان لتغير الحديث: «نعم، أظن ذلك. هل ستعمل بالزراعة يا كايل؟»

«لدي بعض المشاريع.»

«أي نوع من المشاريع؟»

«سوف تسمعين عنها حينما أباشر في تنفيذها.»

«افترض ذلك.»

«وأنت يا ليان، ماذا ستفعلين وقد أصبحت هاي فالي في أيد غير أيدي العائلة؟»

«لن تتغير حياتي. انني أعمل في العلاقات العامة، وأنا أبرع في وظيفتي وأعيش بهدوء مع جدي في بيت صغير يقع تماماً خلف حدود المزرعة. سوف تبقى الأمور على حالها.»

«فهمت.»

«يجب أن أغادر الآن.»

أخرجت ليان مفاتيح سيارتها من حقيبتها، وكادت أن تمشي حينما قالت: «متى ستنتقل إلى هنا؟»

«بعد بضعة أسابيع. أمل ان أراك في الجوار.» اصطكت مفاتيح السيارة بمفاتيح المنزل التي ما زالت في يدها، فناولته اياها.

«كنت قد قررت تسليمها إلى المحامي غداً، كما انني سوف اسلمه المفاتيح كلها، لكن بامكانك الاحتفاظ بهذا المفتاح الآن.»

مدّ يده ليأخذ المفتاح، ووضع أصابعه حول أصابعها. بعثت تلك اللمسة في قلب ليان ذكريات حاولت جاهدة ان تنساها، فشعرت لبرهة ببعض الدوار، ونظرت اليه. كانت شفتاه مائلتين قليلاً نحو الطرف، وكانت نظرات عينيه الداكنتين ثاقبة. لقد أثر فيه انفعال ليان.

تنفست تنفساً سريعاً، ورفعت رأسها إلى الوراء وقالت بهدوء: «أتمنى لك السعادة في هاي فالي.»

لم تنتظر إجابته، وما لبثت أن أدارت محرك سيارتها.

أوقفت ليان السيارة إلى جانب المنزل وبقيت جالسة على مقعدها بضع ثوان قبل ان تفتح الباب وتترجل منها. ألقت نظرة على مرآة السيارة فرأت أن وجهها شاحب، وأن

عينيها الخضراوين جاحظتان على أثر الصدمة. كانت يداها اللتان القتهما على حضنها ترتعشان. لا تريد ان يراها جدها وهي على هذه الحال، لكن لا بد من انه ينتظرها ان هو قد لمح السيارة.

بعد أن تنفست تنفساً طويلاً، شعرت بأنها استعادت رباطة جأشها، فترجلت من السيارة وتوجهت نحو البيت الصغير المبني من جدران بيضاء. كان هذا البيت يشكل جزءاً في العقار، وقد اتخذه مدير المزرعة مسكناً له، وكان يتألف من غرفتي نوم وغرفة جلوس صغيرة ومطبخ لا يتسع الا للأدوات المنزلية العصرية الضرورية، فشتان ما بينه وبين المنزل الأساسي بسقفه القرميدي الذي اضافت اليه اجيال عائلة ديبوا الكثير الكثير. إلا انه كان لهذا البيت الصغير رونقه الخاص، لذا أصر العجوز ديبوا على الاحتفاظ به حينما باع العقار، فهو مسكن صغير ومريح، بارد في الصيف ودافىء في الشتاء، وقريب من حدود هاي فالي، فبامكان من سرت في عروقه دماء عائلة ديبوا أن يقنع نفسه بأنه لم يقطع الصلة بمنزله السابق.

علقت ليان حقيبتها بكتفها، ومشت بسرعة نحو المدخل. توقفت إذ رأت جدها. لأول مرة لم يكن جالساً إلى نافذة غرفة الجلوس يترقب سيارتها، بل كان خارج البيت، غارقاً في كرسي من الخيزران الوثير، معتمراً قبعة قديمة سارحاً في تأملاته، مداعباً بيده المتجعدة الكلب النائم على قدميه، وغليونه المفضل ينثر الرماد على قميصه الرمادي. كان يحدق إلى حقول هاي فالي، وهو غارق في أفكاره، فلم ينتبه لوقع خطى ليان في وسط المدخل.

انتابها شعور أليم وهي تنظر اليه، فمع انقضاء كل شهر يبدو الجد اكثر ضعفاً وهزالاً، حتى انه أضحى من الصعب استذكاره وهو ذاك المزارع القاسي العنيد الذي جارت عليه المحنة منذ بضعة أعوام، هو من أعطى كايل آفيري ووالده ساعة واحدة فقط لمغادرة المنزل.

كان العجوز ديبوا صاحب أكبر مزرعة في كيب، ثري وناجح في عمله، حريص أشد الحرص على منزله وممتلكاته وحفيدته. وقد سمعت ليان الناس يلقبونه بالمستبد وبعديم الرحمة، وكانت تدرك ان هذين اللقبين صحيحان مع انهما أطلقا عليه منذ زمن. لكن ليان أخلصت لجدها بالرغم من عيوبه، فقد لقي والداها مصرعهما على أثر حادث سيارة وهي طفلة صغيرة، فأخذها جدها على عاتقه ورباها واعتنى بها وأحبها - وعلى حد قول كايل - دللها.

قالت محاولة تبديد الحزن من نبرة صوتها: «مرحباً يا جدي» وتسلقت بسرعة أدراج السلم.

أدار وجهه ليراها وقال: «لم اسمعك تأتين.»

انحنت ليان لتقبل وجنته الخشنة: «لا عجب، فقد لاحظت ان تفكيرك بَعُد كثيراً...»

«ليس أبعد من تلك الحقول المترامية خلف هذا السياج.»

«حدثني شعور بأنك كنت تفكر بهاي فالي.»

«يشق عليّ أن أخال هاي فالي ملكاً لغيرنا. سوف تسلمين المفاتيح كلها لمارتن سيمبسون غداً على ما أظن؟»

«سوف أسلمه معظمها.» ثم تنهدت قبل أن تتابع كلامها: «لقد سلمت مفاتيح المدخل الرئيسي اليوم.»

«هل أراد مارتن أن يلقي نظرة على المكان؟»

«كلا.»

ترددت ليان. يجب ان يعرف الجد الحقيقة عاجلاً أم آجلاً. ليتها تدرك كيف سيتلقى الخبر.

«أجيال وأجيال من عائلة ديبوا زرعت الأرض وعاشت في المنزل. ليتني لم أقم بذلك الاستثمار السخيف، ذلك الاستثمار التافه، المشؤوم...»

يبدو أنه لم يلاحظ ترددها، فقد عادت به الذكرى إلى المنزل الذي كان يوماً منزله.

«كيف يمكن ان يبلغ مني الغباء كل هذا المبلغ يا ليان؟ لن أفهم ذلك أبداً.»

«ربما لن تفهم، لكن آن الأوان كي تكف عن لوم نفسك يا جدي، فالناس يرتكبون الأخطاء، وأنت لم يتسن لك أن تدرك انك سوف تخسر هذا المال كله.»

«لقد أورثني أبي المكان وكان قد ورثه عن أبيه، ولو عاش والدك، لكان ورثه عني.»

«جدي، أرجوك...»

«لا يسعني أن أكف عن التفكير بهاي فالي يا ليان. كان ينبغي أن تكون تلك الأرض ملكاً لك، وكان يجب ان يترعرع فيها أولادك يوماً.»

لولا تلك الليلة المروعة منذ سبع سنوات، لكان ما تخيله قد حدث فعلاً، حتى ان لم يسر بحدوثه.

سعياً منها لتبديد أفكاره، ما لبثت ليان أن وضعت حقيبتها جانباً، ونزعت عنها سترتها، ثم نفضت الرماد الجاف عن قميص جدها.

«متى ستتخلص من هذا الغليون المضر؟»

احتج قائلاً: «مضر فعلاً، لكن التدخين هو من اللذات القليلة التي احتفظ بها.»

«لما مانعت لو كنت اكثر اعتناء بنفسك. فأنا أخشى دائماً ان تنام والغليون في فمك.»

«لا تقلقي يا ليان.»

«قد تحرق نفسك يا جدي.»

«لن أرتكب حماقة كهذه. هيا يا صغيرتي، كفي عن التذمر وأخبريني كيف كان يومك.»

«كان يوماً حافلاً بالعمل في المصنع.»

«أنت تنهمكين في العمل كي تعيلي جدك العجوز الذي كان ينبغي عليه أن يعيلك بنفسه.»

«أنت عازم على أن تكون غريب الأطوار اليوم، أليس كذلك؟» قالت ذلك فيما كانت تبتسم له.

«هذا من اللذات المتبقية لي، على أي حال ما قلته لك صحيح، لولا ما تتقاضينه من أجر، لما وسعنا أن نتدبر امرنا.»

رأى الجد وجه ليان يتشح بالحزن، فأردف قائلاً: «حسنا، حسناً، انسي الموضوع. أخبريني الآن، لِمَ سلمت المفتاح إلى مارتن سيمبسون قبل يوم من الموعد المتفق عليه؟ هل قصدته إلى مكتبه؟»

أدارت ليان طرفها وراحت تحدق نحو الأرض خلف السياج. أميال وأميال تترامى على طول الوادي المزنر بالاكام المكتنفة بالضباب المزرورق. لقد رأى شاب يافع قدم من فرنسا قبل مئتي وخمسين عاماً تلك الأرض، فاغرم بها، ورغب فيها، وتملكها.

أخذت ليان تفكر وقد تجهم وجهها في ان شاباً آخر يرغب الآن أيضاً في الأرض عينها، ولو لسبب مختلف، وهو على وشك ان يتخذها مقراً له.

قالت: «لم أسلم المفتاح إلى مارتن سيمبسون.»

استرعت نبرة صوتها انتباه جدها، فأخذ يحدق اليها. راحت ليان تشرح له قائلة: «ذهبت إلى هاي فالي وأردت أن أودع المنزل وداعاً خاصاً في الوقت الذي تسنح لي الفرصة بذلك.»

«يحدثني شعور بأنك تعرفت إلى المالكين الجدد.»

«تعرفت إلى المالك. انه شخص واحد فقط يا جدي. نعم، تعرفت اليه.»

رفعت رأسها وقد لاح في عينيها بريق اضطراب لم يلمحه جدها وهو جالس على كرسيه.

«إذاً من هو هذا الشخص؟ نحن لم نتمكن من معرفة اسم الشاري.»

«لن يعجبك الخبر يا جدي.»

«ليان؟»

«لكن ينبغي ان تعرف الحقيقة.»

«لا تثيري قلقي يا صغيرتي.»

«ان الشخص الذي اشترى هاي فالي هو كايل آفيري.»

لم يأت العجوز الجالس على كرسي الخيزران بحركة، ولم ترتسم أي علامة على وجهه المتجعد، فحث هدوءه ليان على التساؤل ان كان قد سمعها.

«قلت ان كايل آفيري هو مالك هاي فالي الجديد.»

«لقد سمعتك.»

«أنت تذكر كايل، أليس كذلك؟»

«أذكره.»

«هذا كل ما لديك لتقوله؟»

«كلا، ليس هذا كل ما لدي.»

وإذ بجسم العجوز ديبوا يتصلب، وإذ بعينيه الساكنتين تتقدان غضباً، ذاك الغضب الذي أزكى منذ سنوات مضت الهيبة في قلوب رجال ونساء كثر. لذا كان لدى ليان السبب الوجيه كي تخشى ردة فعل جدها.

«جدي...»

«أتذكر أشد التذكر شخصاً يدعى آفيري يا ليان. إنه شخص غليظ وجدير بالازدراء.»

«جدي، لا...»

«انه سائس خيل أناني وعاق، لا مبدأ له، تعدى على فتاة بريئة في السابعة عشرة من عمرها.»

«كان بوسعي ان استدعي الشرطة وأوجه اليه تهمة الاغتصاب.»

أصرت ليان قائلة: «لم يكن ذلك اغتصاباً.»

«هذا ما تقولينه الآن.»

«انها الحقيقة. ما كان ينبغي ان تطرده من هاي فالي. أنا لم أعلم انك السبب في رحيله الا اليوم.»

قال الجد متذمراً: «من حسن حظه أن ذلك كان كل ما فعلته به.»

«ما كان يجب ان تفعل ذلك يا جدي... لقد ظننت...»

اكفهرت عينا ليان فيما تذكرت العذاب الذي عانته وهي تنتظر عودة كايل، وتنتظر رسالة منه.

«ظننت أنك سوف تعلمه بحملي، وأنه رحل لأنه لم يحتمل فكرة ان يكون أباً.»

«هل جننت يا ليان؟ لم أكن لأخبره انك حامل ولو بعد مليون سنة! لقد طردته لأنه بنى علاقة حميمة مع حفيدتي!»

«لماذا لم تخبره بأمر الطفل؟»

«فكري بالأمر يا صغيرتي، من يعلم ماذا يفعل شاب مثل هذا إذا عرف انه سوف يلد له طفل من عائلة ديبوا، ربما قد يطلب طلبات لا يعقل تنفيذها، ربما قد يقوم بابتزازنا او يطلب منا فدية.»

«لا، ما كان كايل ليفعل ذلك.»

لا، على الأقل، ليس كايل الذي عرفته آنذاك. أدركت ليان أنها عاجزة عن النظر إلى جدها، فراحت تسرح نظرها في الجبال النائية.

استدارت نحوه وقالت: «أنا أقول لك الحقيقة فقط. أعلم اننا لم نتحدث عن الموضوع منذ سنوات، لكن هذا لا يعني انني لم أفكر به، لم أفكر بالطفل، بطفلنا! بكايل!»

«ليان!»

«ليس سوى سائس خيل بالنسبة اليك. انما كان يعني لي الكثير الكثير. لا يا جدي، لا تنظر إليّ هذه النظرة، فقد حان الوقت كي نتكلم في هذا الموضوع. كان كايل وسيماً ومرحاً أشد المرح، وكنت متيمة به.»

«ما زلت متيمة به إلى الآن، أليس كذلك؟»

استحالت نظرة جدها الغاضبة إلى نظرة قاسية ثاقبة، فقالت بصوت منخفض: «لم أقل ذلك. أنا لم أعد في السابعة عشر من العمر، كما أن كايل أصبح أيضاً اكبر سناً. لقد

تغيرنا، وربما تغير كايل أكثر مما تغيرت. لم يعد سائس الخيل الذي تذكره. لم أسأله عن مهنته، لكن من الواضح انه ناجح في عمله.»

هدأ الجد لبعض الوقت، فدق غليونه على كرسيه، ناثراً كمية اكبر من الرماد على ثيابه وعلى الأرض.

سألها أخيراً: «هل أخبرته بأمر الطفل يا ليان؟»

«كلا.»

«هل ستخبرينه؟»

«لست متأكدة. لا أدري ماذا أفعل.»

أجابها العجوز ديبوا بفظاظة: «أرى أن تكتمي عنه خبراً كهذا، فهو لم يبال بما جرى.»

«أنت مخطىء يا جدي، كان كايل مهتماً بما جرى، وربما لا يزال يبدي الاهتمام عينه حتى الآن.»

«كلا يا ليان.»

«الواقع أن زمناً طويلاً مضى، ومن الواضح انه لم تعد تخالجه المشاعر نفسها التي كان يكنها لي سابقاً، فقد شعرت انه يحتقرني، فأنا أشك فعلاً في أن يبالي كايل آفيري ولو أقل مبالاة بما قد أخبره به.»

الفصل الثاني

بعد بضعة أيام، كانت ليان عائدة من عملها وفي طريقها إلى البيت حينما خالجها شعور أليم في داخلها إذ انعطفت بسيارتها، فرأت السياج الخشبي الطويل حول هاي فالي.

مع أنها ودعت المنزل الكبير، فقد بقي مكان واحد لم تزره ثانية، وكان ينبغي أن تراه قبل أن يضع كايل آفيري يده على المزرعة. لا يهم إن كانت قد سلمت المفاتيح جميعها، فقلما يوصد باب الحظيرة، لذا فهو قد يكون مفتوحاً الآن.

قادت السيارة عبر البوابات الحجرية وعلى طول الطريق المؤدية إلى المنزل والمظلمة بأشجار السنديان. أجالت طرفها بحذر حينما أوقفت السيارة، إلا أن الباحة القرميدية كانت خالية، وكان السكون يخيم على المنزل.

مضت سبع سنوات على مرورها الأخير بهذا الطريق، لكن كل خطوة ارتسمت على هذه الدرب كانت مألوفة. الحجارة المتناثرة هنا وهناك، والشجيرات، وأغصان الدفلى المتعانقة.

لقد كانت الحظيرة ملتقى رائعاً لسبب واحد، وهو أن ما من عابر سبيل يستطيع أن يستكشف المبنى المشيد خلف الشجيرات النامية، وقلما ارتاده الأشخاص الذين يعلمون بوجوده، ذاك المبنى الذي تصدعت جدرانه وزال عنه الطلاء، فارتسمت عليها خطوط طويلة، وغطت خيوط العنكبوت

بابه. أحدث القفل الصدىء صريراً موجعاً حينما دفعت ليان الباب لتفتحه، وأطلق عصفور أرعبه الصرير صوتاً حاداً وهو يطير من عشه الذي بناه في الموقد.

وقفت ليان عند المدخل، فشدت أنفها لما بادرتها رائحة العفن، واتسعت عيناها كي ترى عبر الظلمة. أوشكت لبرهة أن تعود ادراجها، بيد أن هذا الوداع الخاص كان أهم من ذاك الذي قالته منذ بضعة ايام. تركت الباب ودخلت الحظيرة، وما لبثت عيناها أن اعتادتا النور الخافت، فسارت نحو الأمام. أجالت طرفها فرأت الطاولة القديمة، والكراسي، والموقد العتيق الذي كانت تسخن عليه الماء لتحضر الشاي مع كايل، ورأت الخزانة الصغيرة التي كانا يحتفظان فيها ببعض الأغراض، فإذ بليان تغرق في الذكريات.

كانت تتلمس كرسياً وهي تغرس أصابعها في الغبار المتراكم عندما سمعت صوتاً يقول: «مخبأ رائع، أليس كذلك؟» اختنق صوتها في حنجرتها، فاستدارت وتمتمت: «كايل!»

«مكان مناسب للعشاق الذين لا يريدون أن يراهم الناس.»

«أخفتني خوفاً شديداً! ماذا تفعل هنا؟»

أجابها كايل: «هل لي أن اذكرك أنني أصبحت مالكاً لهذا المكان؟»

«لكنك قلت إنك لن تأتي للعيش هنا قبل أسابيع.»

«هل لي أن أقدم لك تقريراً عن تحركاتي؟ أنا لم أعد سائس خيل يا ليان.»

كان النور يكتنفه من الوراء، فرأت عينيه الساخرتين.

أحست فجأة بالضعف يشل رجليها فكان عليها أن تتكىء على الكرسي كي لا تقع أرضاً. ها ان كايل قربها الآن، وها انها تشعر شعوراً شديداً بوجوده. ظنت أنها سوف تكون لوحدها في الحظيرة، وها هو الآن يخترق عزلتها، مولداً فيها شعوراً بالاثارة والغضب في آن معاً.

«ظننت فقط.. بالطبع، لست مرغماً على أن تقدم لي تقريراً.»

علق على قولها قائلاً: «تبدين مرتبكة.»

«لم أتوقع أن أراك هنا، هذا كل ما في الأمر.»

«ألا تذكرين قولي إنني سوف أراك في الجوار؟»

«لم ألمح سيارتك.»

«لم آت إلى هنا بسيارتي. غادرت جوهانزبرغ اليوم على متن الطائرة، وقد وافاني مارتن سيمبسون إلى كيب تاون وأوصلني إلى هاي فالي.»

كانت ليان قد استعادت رباطة جأشها حينما قالت:

«خطر لك أن تقوم بنزهة صغيرة إلى الحظيرة القديمة؟ يا للصدفة الغريبة، أليس كذلك يا كايل؟»

«إنها حقاً صدفة، فقد كنت في المكتبة عندما وصلت. رأيتك تقودين سيارتك. ظننتك آتية إلى المنزل، لكنك مررت به واتجهت إلى هنا، فقررت أن أوافيك.»

«كان في إمكانك أن تناديني.»

«كان في إمكاني ذلك على ما أظن، لكنني آثرت ألا أناديك.»

قالت وكأنها تتهمه: «قررت أن تلحق بي بدلاً من أن تناديني.»

«انتظرت لبرهة، ثم توجهت إلى هنا.»

ارتجف صوتها حينما أجابته: «علمت أنني سوف أكون هنا.»

«ظننت أنك قد تكونين هنا.»

سألته وقد جفت شفتاها: «ما الذي جعلك متأكدا هكذا؟»

خطا كايل خطوة في اتجاهها وقال:

«ظننت أنك قد تودين طرد بعض الأشباح.»

ابتلعت ليان ريقها بصعوبة، فمجرد أن يقرأ هذا الغريب الفظ أفكارها قراءة كاملة يثير حنقها. فقالت مرتبكة: «أنت لا تعرف ذلك.»

«أظن أنني على حق.»

كانت على وشك أن تدفعه حينما قالت: «كايل.»

«أترين يا ليان، أنا أيضاً لدي أشباح وذكريات.»

أردعتها تلك الكلمات وقد تفوه بها بنعومة، ثم أردف قائلاً: «ذكريات فتاة شابة، خجلت وارتجفت أول الأمر، فتاة بريئة وغر، على ما أظن.»

«لا.»

«فتاة عاطفية، فاقت عاطفتها كل ما تخيلت، أذكر أن حماسها أدهشني.»

كانت ليان ترتجف حينما قالت: «أتمنى لو تكف عن الكلام.»

«لم أكن سوى سائس خيل حقير، لا يحق له أن يلمس حفيدة آل ديبوا الغالية، إلا أنها أغرمت بي بقدر ما أغرمت بها.»

«لا أريد أن اسمع ما تقوله.»

«هلا تذكرت ما فعلناه هنا معاً يا ليان؟»

«سئمت كلامك!»

اتجهت ليان نحو باب المدخل، فاعترضتها مشكلة، وهي أنها لن تستطيع مغادرة الحظيرة إلا إذا مرت بالقرب من كايل. كان يقف أمامها ويداه على وشك أن تمسكا بها، وما لبث أن خطا بضع خطوات وأمسك بذراعها، مانعاً إياها من متابعة سيرها قدماً.

فسألته: «لن تبقيني هنا رغماً عني، أليس كذلك؟»

«بالطبع لا. أنا لم آت عملاً ينافي مشيئتك يا ليان. أنا لم أرغمك على القيام بفعل لا تريدين القيام به.»

من حسن حظ ليان أن الظلمة كانت حالكة، فلم يتسن لكايل أن يرى وجهها يحمر، فقالت له: «هذا صحيح، أنت لم ترغمني آنذاك، لكنك تحجزني الآن هنا، فيما تعلم أنني أريد الذهاب.»

«سوف أدعك تذهبين إن اجبت عن سؤالي.»

حاولت أن تتحرك، لكن من دون جدوى. كانت ترتدي ثوباً صيفياً خفيفاً، فأحست وكأن اصابعه اسهماً نارية تلهب ذراعها.

«ما هو السؤال؟»

«ألم تتذكري يوماً ما فعلناه ههنا؟»

قالت بفظاظة: «مضت سبع سنوات على ذلك، وهذه فترة طويلة يا كايل، كنا لا نزال مراهقين.»

«أنا لم أكن مراهقاً. كنت في الثالثة والعشرين من العمر، وكنت امرأة شابة ولو في سن السابعة عشرة.»

«ربما، لكننا لم نعد ذينك الشخصين المتحابين.»

أحكم قبضته على ذراعها. كان قريباً منها، فتنسمت ليان رائحة عطره الزكية التي فاحت في الجو العفن.

خالج ليان في عمق نفسها شعور مفعم بالاضطراب، شعور مؤلم، صارخ، متلهف، توق امرأة شابة إلى حب ذاقته يوماً، حب أمسى كلمة زائلة.

قال لها بإصرار يضاهي إصرارها وهو يحكم قبضته على ذراعها: «ألا تذكرين تلك اللحظات؟» أقرت ليان بصوت خافت: «أحياناً.»

«ما كنت لأصدقك لو قلت انك لا تذكرين.»

وإذ بيد كايل تفلت ذراعها، وسار هذا الأخير نحو الداخل، ووقف قرب الكرسي الذي لمسته ليان. كان بوسعها أن تغادر الحظيرة الآن، لكن شعوراً ما أبقاها مسمرة في مكانها.

نظرت إليه وهو يلمس الكراسي والطاولة، ويفتح العلبة، فوقع شيء ما على الأرض. انحنى كايل ليلتقطه، نظر إليها وقال بصوت ضاحك: «إنها قطعة كعك! أصبحت قاسية كالحجر. يدهشني كيف لم تعثر عليها الفئران حتى الآن.»

«أظن أن الفئران قضت على كل ما تركناه هنا.»

«أظن ذلك أيضاً، نحن لم نمض أوقاتاً ممتعة فحسب، بل أمضينا أوقاتاً مسلية أيضاً، ألا تذكرينها؟»

تركت ليان المدخل الآمن من دون سابق تفكير، ودنت من كايل.

«لقد أمضينا أوقاتاً ممتعة. كنت أخاطر في اختلاس الكراسي والطاولة والطعام من المنزل. والأعجب من ذلك أن أحداً لم يلاحظ أن شيئاً ما قد فقد. كانت مدبرة المنزل

تتساءل أحياناً لما أبدي فجأة هذه الشهية إلى الطعام، لكنني لا أظن أنها شكت يوماً في أمري.»

ضحك كايل ثانية.

«كان أبي يتساءل إلى أين انقل كمية القش كلها، لكنه لم يشك في أمري أيضاً. ابتسمت ليان قائلة: «كنا كطفلين صغيرين يلهوان معاً.»

«أجمل ما أذكره أننا كنا لوحدنا نمضي أوقاتاً ممتعة.»

قالت ليان وقد اختنق صوتها: «نحن لم نتقابل سوى مرتين.»

«لم نتوقع تلك النهاية.» كانت نبرة الضحك قد فارقت صوته.

«أجل.»

«كيف علم جدك بعلاقتنا؟ لا يمكن أن أصدق بأنك أخبرته بوجودنا هنا.»

«كلا، لم أخبره.»

«هل لحق بنا إلى هنا؟»

كانت الذكريات لا تزال تؤلمها، فكان على ليان أن تبذل جهداً كي تتكلم.

«كلا، لم يلحق بنا.»

«لا بد من أن أحداً أخبره بأمرنا.»

فهمست قائلة: «نعم، أخبره شخص ما.»

«من هو؟»

«هذا لا يهم يا كايل. هذا لم يعد مهماً في الوقت الحاضر.» فأصر عليها قائلاً: «من هو؟ لم يكتشف أحد أمرنا، على الأقل على حد علمي.»

«لا أريد التكلم عن الموضوع.»

أصر ثانية: «أما أنا فأريد ذلك.»

سمحت ليان لنفسها ولبضع دقائق أن تخفف من وطأة حذرها، وقد غاب عن ذهنها أن الشاب المرح الذي عشقته يوماً، غدا شخصاً غريباً قاسياً، لا يعرف للصفح سبيلاً. أدركت الآن أنه لم يجدر بها أن تتمادى في الحديث معه، فابتعدت عنه وقالت: «يجب أن أذهب.»

«ليس بهذه السرعة.»

أمسك بها مرة أخرى، من دون سابق إنذار. حاولت ليان أن تكتم رعشتها: «ليس لدي كلام أقوله لك.»

أحست وسط الظلمة أنه يرنو إليها، وشعرت بنظراته الثاقبة تخترق عينيها.

«أظن أنك تكذبين، ولا أعرف لماذا.»

«أرجوك يا كايل.»

«قولي لي على الأقل يا ليان، هل كنت تأتين إلى هنا بعدما طردني جدك؟»

«هل يهمك ذلك؟»

قال بنبرة قاسية: «نعم، يهمني ذلك. هل أتيت إلى هنا يا ليان؟ هل أنشأت علاقة جديدة مع شخص آخر في المكان الذي قطعت فيه علاقتك معي؟»

كان وقع كلماته قاسياً، لاذعاً، موجعاً.

فصاحت به قائلة: «كيف تجرؤ على هذا القول؟»

«هل حصل ذلك؟»

قالت بصعوبة: «أتيت إلى هنا مرة واحدة.»

«مرة واحدة؟ مرة واحدة خلال هذه السنوات كلها؟»

«نعم.»

«لم أتيت؟ لأي غاية؟»

«هذا أمر يعنيني.»

أدارت ليان رأسها فيما طفرت الدموع من عينيها، دموع استحال عليها كتمانها. كانت كل ثانية امضتها في تلك الليلة داخل الحظيرة المظلمة حية في ذهنها، إلا أنها لم تكن مستعدة لتبوح إلى كايل بأحداث جرت، حتى لو كان له الحق في أن يعلم بها.

كانت تشك في قدرتها على التحدث عن تلك الليلة من دون أن تبكي، تلك الليلة التي زلت فيها قدمها إذ داست على بقعة زيت في المطبخ، وضربت رأسها بالطاولة، فسقطت أرضاً وأغمي عليها. نقلها جدها إلى المستشفى على جناح السرعة، فعلم لأول مرة أنها حامل. أدركت ليان الآن لم اندفع جدها إلى المنزل وقد استشاط غضباً، وطرد كايل ووالده من المزرعة. فقدت ليان جنينها بعد بضعة أيام على سقوطها في المطبخ. لما عادت إلى المزرعة بعد يومين من وفاة جنينها، استقبلها سائس خيل جديد، وأخبرها أحد الصبية أن كايل قد رحل، وأكد لها جدها الخبر لاحقاً وهو منقبض السحنة.

لم تستطع الدموع الغزيرة التي ذرفتها ليان أن تكشف لها إلى أين رحل كايل أو في أي مكان يمكن أن تجده. وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة، زحفت ليان حتى بلغت الباب الخارجي وفي يدها مصباح، وذهبت إلى الحظيرة كي تزورها زيارة أخيرة، فبادرتها روائح ألفها أنفها، ومشاهد ألفتها عيناها، لكن كايل الضاحك لم يكن

حاضراً ليضمها بذراعيه. وتمددت ليان على سرير القش الذي صنعه كايل والظلمة تكتنفها، فبكت حتى نضبت دموعها.

قال لها كايل بصوت ناعم: «ليان.»

كانت لا تزال مطرقة الرأس: «نعم.»

«ما بك؟»

«لا شيء.»

«أنسيت أنني اعرفك حق المعرفة؟ أنت حزينة يا ليان.»

لم يسمع منها أي جواب.

«لِمَ تبكي؟»

«أنا لا...»

قال لها آمراً: «انظري إليّ.»

فهمست بصوت مخنوق: «دعني أرحل.»

ارتعشت حينما لمس وجهها، ووضع أصابعه على جفنيها، ثم على جلدها الناعم، تحت اهدابها.

«ظننتك تبكين.»

«أليس لديك الحس المرهف لتعرف متى تكف عن طرح الأسئلة؟»

سألها وكأنه لم يسمعها: «لماذا؟»

من الواضح أنه لن يطلق سراحها إلاّ إذا أفصحت له عن سبب بكائها. لم يسعها أن تخبره بأمر الطفل؛ على أي حال، ليس في الوقت الحاضر، لكن كان عليها أن تتكلم.

«أنت نفسك قلت ان لدينا ذكريات.»

أرغمت ليان نفسها على النظر إليه، وتابعت قائلة: «كنت في السابعة عشرة من عمري حينما أتينا إلى هنا معاً. أنت

على حق يا كايل، كنت بريئة آنذاك، وإن أول علاقة حب تعني الكثير لفتاة شابة.»

«أول علاقة؟ لا بد من أنك أنشأت علاقات أخرى بعدئذ.»

«أنا في الرابعة والعشرين، وأنت الآن تتخطى حدودك.»

حاولت أن تبتعد عنه وقالت: «دعني أرحل الآن.»

«أريد أولاً أن افعل شيئاً.»

كان صوته مثيراً، وكأنه ينذرها بما سوف يحدث قبل أن يدنو منها كايل ويضمها بذارعيه. استطاعت لبرهة أن تلوذ بالفرار، لكنها لم تكن سريعة بما فيه الكفاية كي تغتنم الفرصة، أو ربما لم تقو على ذلك، فأغمضت عينيها حينما انحنى كايل ليقبلها.

لطالما تحرقت شوقاً إلى كايل خلال السنوات الأولى التي تلت فراقهما القسري، فكانت تحلم به ليلة بعد ليلة، وها ان الواقع ينصهر بتلك الأحلام، فتستحيل تلك اللحظات حلماً واحداً يتحقق.

رفع كايل يديه إلى رأسها وهو يداعب خصل شعرها المنسدلة على ظهرها. فقدت ليان صوابها في تلك اللحظات، فضمت كايل بذراعيها واقتربت منه اكثر وأكثر. فما لبث هذا الأخير أن رفع رأسه، فسمعته ليان يقول بصوت غريب: «إذاً؟»

رفعت إليه ناظريها وقد أصيبت بشبه دوار: «كايل.»

«هذا يفوق ما توقعته منك حينما لحقت بك إلى الحظيرة.»

«ماذا... ماذا تعني؟»

«أعني هذا يا حبيبتي.»

جذبها إليه وحملها إلى الزاوية التي وضعا فيها سرير القش.

«لا تظن فعلاً...»

«سوف نمضي أوقات ممتعة يا ليان. لقد ولد حبنا أليس من المناسب أن يكبر هنا أيضاً؟»

كانت نبرة صوته مفعمة بحزن غريب، مما أعاد إلى ليان صوابها. لم يكن هذا الرجل كايل الذي عشقته يوماً، كايل اللطيف، والحنون. أما الآن، فهو يبدو غريباً، ساخراً، يحتقرها ويكره جدها.

فجأة، أخذت تقاومه، فضحك، فأحست بلهاثه الحار يدغدغ وجنتها، ثم قال لها: «اصبري يا حبيبتي.»

«دعني!»

أفلتها فعلاً، لكنه فعل ذلك ليضع سترته تحتها، على حرف سرير القش القديم، ثم انحنى وقبلها.

كانت تدفعه وهي تقول: «لا.» فجلس على عقبي قدميه وقال: «ما بك الآن؟»

«يجب أن اخرج من هنا.»

«لا تقولي لي إني لا افهم ما يجول في خاطرك.»

سوت ليان ثوبها بأصابع مرتجفة، ثم قالت:

«لا يمكن أن ابقى هنا.»

«أردت أن تبقي معي منذ لحظات، لا تحاولي أن تنكري ذلك.»

وضعت يديها على وجنتيها الملتهبتين وقالت:

«لم أع ماذا كنت أفعل، كنت مرتبكة.»

«كنت تبدين وكأنك فتاة أحلامي العاشقة المتلهفة.»

انحنى ثانية، لكنها كانت مستعدة لصده، فجلست وهي تدفعه إلى الوراء.

«ما كان ينبغي أن يحصل ما حصل الآن.»

فقال بصوت ناعم: «لكنه حصل، وعليّ أن اتساءل لماذا؟»

فأجابته بلهجة قاسية: «قل إنه جنون عابر، لا تغالِ في تحليلك الأمر، فالفتاة التي تذكرها. ماتت، لو علمت أنك في هاي فالي، ولو كان لدي أدنى شك في أنك سوف تلحق بي، لما كنت أتيت إلى هنا.»

خرجت وهي مضطربة من الحظيرة وراحت تعدو على طول الدرب المؤدية إلى المنزل، لا تأبه للحجارة المنثورة هنا وهناك، ولا لشجيرات الزعرور والبلوط التي علقت وريقاتها بثيابها. لم تنظر إلى الوراء مرة أخرى كي ترى إن لحق بها كايل.

أحدثت سيارتها ضجيجاً مزعجاً حينما أدارت ليان المحرك وضغطت بقدمها ضغطاً قوياً على دواسة البنزين. لم تكن السيارة القديمة لتحدث هذا الضجيج لو عاملتها ليان برفق، ليان التي كانت تقود عادة بتأن، أما الآن، فهي لم تنتبه لحالة سيارتها، فراحت تقودها بسرعة على منعطفات طريق المزرعة، ولم توقفها على حافة الطريق المكسوة بالرمل إلاّ حينما اجتازت بوابات هاي فالي الحجرية، وتوارى المنزل عن ناظريها.

لم تنتبه للقش الذي علق بثيابها وهي تخرج مضطربة من الحظيرة، لكن لا بد من أن يراها جدها وهي على هذه الحال، فيبدي لها الملاحظة.

كان الوقت متأخراً، وكانت السماء مخضبة بألوان الغروب المتألقة، والجبال النائية مكتنفة بالضباب، لا تجلو

للعين. لا ريب في أن جدها يتساءل أين هي، لكنها لم تستطع لبضع دقائق أن تأتي بحركة. فتحت نافذتها وهي غارقة في مقعدها، وتنشقت الهواء تنشقاً مشنجاً، ثم راحت تنفض عنها القش وحبوب الزعرور ووريقات البلوط. إنه لعمل مضن لأن هذه الأشياء كانت معلقة بحبكات القطن الخفيف الذي صنع منه ثوبها. لما نزعت آخر وريقة عن ثيابها ورمتها خارج السيارة، انحنت ليان إلى الأمام ونظرت إلى مرآة السيارة، فراعها منظر وجهها.

كان شعرها الكستنائي اللون مبعثراً، إلا أنها ما لبثت أن سرحته بسهولة بواسطة المشط الذي تحتفظ به دائماً في حقيبتها، لكن كان من الصعب إخفاء النظرات الوحشية والمصدومة في عينيها الواسعتين. ما ان يرى جدها تلك النظرات حتى يعلم أن حادثاً ما وقع.

فتحت ليان الصندوق الداخلي الصغير وهي متجهمة الوجه، فأخرجت منه نظارتها الشمسية. في أسوأ الحالات، سوف يضحك جدها منها لأنها انشغلت كثيراً، فنسيت أن تنزع نظارتها حينما تبتعد عن الشمس. لو تسنى له أن يعلم بحقيقة كايل وبحقيقة ما جرى، لما كان لغضبه حد.

مضى اسبوعان وليان تمر كل يوم بهاي فالي وهي ذاهبة إلى عملها أو عائدة منه، فتلقي نظرة على السقف العالي الذي يكلل المنزل الريفي الجميل المكتنف بالأشجار الباسقة، على مسافة قريبة من الطريق. هل يقيم كايل هناك الآن؟ كانت تسهل على ليان معرفة ذلك، لكنها لم تنو زيارة المزرعة ثانية.

في وقت متأخر من بعد ظهر يوم جمعة، ارتشفت رشفة

شراب بارد حضّره جدها وهو ينتظر عودتها من العمل، ثم تراجعت في كرسيها إلى الوراء. كان المصنع يخضع إلى بعض التغييرات، فكان على ليان أن تؤمن في مكتبها ساعات عمل إضافية عديدة طوال الأسبوع، أما الآن فهي مقبلة على يومين من الراحة التامة. أغمضت عينيها وراحت تنصت إلى أصوات الصيف وتتنسم روائحه: رائحة العشب الذي خضله ندى الصباح، وأريج الياسمين الفواح الذي يحدق بالبيت، وطنين النحل في الخشخاش الايسلندي.

غلبها النعاس، فلم يتناه إلى مسمعها حفيف الدواليب الخافت على الطريق الرملية، فقال جدها: «أرى سيارة قد توقفت.»

«هل تنتظر أحداً يا جدي؟»

«أنتظر فقط هستر داونز، فهو سيجلب لي البيض، لكنه لا يملك سيارة فضية اللون.»

فضية اللون؟ فتحت ليان عينيها وسوّت جلستها.

«أتساءل من الزائر يا صغيرتي.»

كان العجوز ديبوا واقفاً إلى جانب الحائط القرميدي وقد تولته الحيرة إذ نظر باتجاه السيارة. انتصبت ليان فجأة، وسوت ثيابها، ومررت يداً مرتجفة على شعرها.

«إن لم أكن مخطئة، جارنا الجديد، وهو آتٍ لزيارتنا.»

«سائس الخيل؟»

«اسمه كايل آفيري، وقد مضى زمن طويل مذ كان سائس خيل. أرى أنه من الأفضل أن تتذكر ذلك يا جدي.»

«ما فتىء بالنسبة إليّ شاباً من حثالة المجتمع، ألحق بك الأذى.»

قالت ليان بصوت مذعور: «لا تتفوه بكلمة واحدة كهذه أمام كايل، أرجوك أن تكون لطيفاً معه يا جدي.»

«أنت لا تعلمين ماذا تطلبين مني.»

«على الأقل ابذل جهداً كي تكون مهذباً. إن بدأتما علاقة جديدة على أساس سيىء، سوف تصبح الحياة هنا كابوساً.»

«لن أقطع على نفسي أي وعد. إن كنت مهذباً ـ وأحذرك أن يبادلني التهذيب عينه ـ فإني أبذل جهداً كهذا من أجلك فقط يا ليان. لو عاد القرار لي، لقلت له ان يتخلى عن ملكي وألاّ يريني وجهه ثانية.»

قالت ليان بصوت خافت: «ها هو قادم.»

خالجها شعور مثير في داخلها فيما كان كايل سائراً على الدرب باتجاه المنزل. كانت تخشى أن يولد فيها مجرد النظر إليه الشعور بالضعف.

ها هو كايل بمظهره الجديد ينم عن قوة وعزم. فهو يرتدي سروالاً ضارباً إلى السمرة، وقميصاً ذا لون أصفر شاحب ملتصق بجسمه، كاشفاً عضلات صدره وساعديه.

كان يمشي مشية ثابتة، مشية الرجل الواثق من نفسه. تطاير شعره في الهواء فسرحه بيده وهو يدنو من المدخل.

حانت من ليان التفاتة إلى جدها، فرأت نظرة الدهشة في عينيه. لقد تأثر العجوز رغماً عنه.

رمى كايل ليان بنظرة باسمة، نظرة عينيه المتقدتين، الداكنتين، الضاحكتين، وكأنه حزر الاضطراب الذي تولاها، ثم نظر إلى جدها وقال بلطف:

«مرحبا يا سيد ديبوا.» ورأت ليان يديه اللتين تنفر منهما عروق مزرقة مطبقتين عند الجانبين.

قال كايل ثانية: «سيد ديبوا.» كانت يده لا تزال ممدودة.

إن حركة كهذه يقوم بها شخص آخر قد تبدو وكأنها استعطاء، أو توق إلى صداقة لن يحصل عليها أبداً. أما في ما يتعلق بكايل آفيري، فهي دعوة لا يمكن لأحد أن يرفضها من دون أن يعاقب.

حولت ليان بصرها عن يد يمنى جافة ومطبقة، ونظرت إلى يد رجل آخر قوية وممشوقة الأصابع فهمست بصوت ناعم: «جدي.»

قال الجد متمتماً: «لِمَ أتيت إلى هنا؟»

«أصبحنا الآن جيراناً.»

«لم أكن لأبيع هاي فالي لو علمت أنك أنت الشاري.»

«لكنك بعت هاي فالي، وأصبحنا جيراناً. ألن تصافحني يا سيد ديبوا؟»

أفلت الجد ديبوا يده اليمنى ببطء وكأن تلك الحركة تتطلب جهداً خارقاً، ثم رفعها حتى لمست يد كايل.

تنفست ليان الصعداء، واقترحت عليهما بصوت هش: «لِمَ لا تجلسان؟ سوف احضر شراباً.»

قال كايل: «هذه فكرة جيدة.»

قال الجد ديبوا متمتماً: «يوجد بعض الشراب في البراد.»

لم تنم نبرة صوته عن لطف، بيد أن ليان كانت تعلم أن جدها أرغم نفسه على تقبل وضع لم يكن له الخيار في رفضه. غادرت المصطبة ودخلت البيت، لم تذهب مباشرة إلى المطبخ، بل اتجهت إلى الحمام. ألقت نظرة على المرآة وهي متوترة، ثم غسلت وجهها بالمياه الباردة، وسرحت شعرها، ووضعت بعض الطلاء اللماع على شفتيها. ودت لو

تبدل ثيابها وترتدي ملابس أكثر أناقة من سروالها القديم وقميصها اللذين ارتدتهما بعد عودتها من المصنع، لكن تبديل ثيابها قد يولد لدى كايل شعوراً بالأهمية والقوة، لا يستحق أن يشعر به.

دخلت المطبخ، فحضرت صينية وكوبين من شراب البرتقال، وكوباً من عصير الليمون. كانت تدرك أن عليها أن تكون صافية الذهن عندما تتكلم مع كايل آفيري.

عادت إلى المصطبة، فرأتهما جالسين. كانا يتحدثان، لكن ما ان وصلت حتى أدارا رأسيهما. فقال لها جدها حينما قدمت لهما الشراب: «كنت أسأل كايل كيف جمع المال الكافي لشراء العقار.»

قالت ليان مترددة لأنها كانت قد طرحت على نفسها السؤال عينه: «هذا ليس سؤالاً مهذباً يا جدي.»

قال كايل: «لكنه سؤال طبيعي نظراً إلى انني غادرت هذا المكان وأنا سائس خيل لا يملك فلساً واحداً.»

رأت ليان بريقاً لاح في عينيه، ثم تابع قائلاً: «يمكن القول يا سيد ديبوا ان طردك إياي من هاي فالي عمل من أعمال الخير، فلو بقيت هنا، لكنت استمريت في عملي في الاسطبل. أما الآن، فأنا أملك شركة ناجحة تصنع أدوات زراعية، من بينها آلة اخترعتها بنفسي، ويسرني القول انها تباع بكميات كبيرة.»

«كيف ذلك؟» لم يستطع الجد ديبوا إخفاء دهشته، وتابع يسأله: «ماذا تنوي أن تفعل في هاي فالي؟»

رأت ليان كايل يلقي نظرة على الحقول المترامية خلف السياج.

قال: «لدي بعض المشاريع.» ثم وضع كوبه على الطاولة ووقف قائلاً: «عليّ أن أذهب، أنعشني الشراب يا ليان، شكراً لك.» مد يده إلى العجوز ديبوا، فصافحه هذا الأخير من دون تردد.

قالت له ليان: «إلى اللقاء يا كايل.»

«أود أن ترافقيني إلى السيارة.»

لم تنظر إلى كايل فيما كانا يبتعدان عن البيت، مع ذلك، فقد كانت تحس بجسمه الطويل والنحيل وهو قريب منها. مست ذراعه ذراعها، فكان عليها أن تبذل جهداً كي تتجاهل الوخز الخفيف الذي ولدته فيها تلك اللمسة.

انتظرت حتى ابتعدا عن مدى السمع وقالت:

«لدي كلام أقوله لك.»

ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «تريدين أن تدبري لقاءً آخر في الحظيرة؟»

أجابته بحدة: «لا تكن سخيفاً!»

قال ببطء: «وهل هذا أمر سخيف؟ كان لدي انطباع بأنك كنت تتمتعين بكل لحظة قضيناها معاً، إلى أن بدأت تفكرين بالأمر، ثم قررت أنه لا يجدر بك القيام بهكذا فعل.»

نظرت إليه ليان بعينين غاضبتين: «أنت تستمتع بإذلالي، أليس كذلك يا كايل؟ تماماً كما استمتعت اليوم بإذلال جدي. ألهذه الغاية أتيت لزيارتنا؟»

«ألا تصدقين أنني أتيت إلى هنا لأثبت حسن الجوار؟»

«أم لترى الرجل الذي تكرهه؟ لا، لن أصدق ذلك ولو لثانية واحدة! رأيت عينيك حينما سألك جدي عن مشاريعك، فلم تعطه جواباً.»

«أصبحت امرأة حساسة، أليس كذلك؟»

«مهما كانت مشاريعك مهمة، أرجوك أن تحترم جدي يا كايل.»

«اعطني سبباً واحداً فقط يحملني على احترامه.»

أجابته ليان بصوت خافت: «لأنني أحبه.»

فقال لها ساخراً: «تظنين أنه ينبغي عليّ أن أحبه أنا أيضاً؟»

«أعلم أن هذا أمر مستحيل، أريدك فقط أن تحترمه.»

«احترام الجد ديبوا... أنا ما أزال أذكر كل كلمة قالها لي العجوز الشرير حينما طردني.»

كانت نظرات كايل كئيبة.

تابع قائلاً: «قال لي إنه عليّ أن أفكر ملياً إذا كنت أنوي الزواج بك، فهو لن يسمح لي أبداً بالاقتران بحفيدته الغالية. وبوضع يدي على الملك الذي سترثينه يوماً.»

بدأت ليان ترتجف: «مضى زمن طويل على ذلك. يدهشني أنك ما زلت تفكر بالأمر.»

«أنت مندهشة حقاً؟ سبع سنوات يا ليان وكلماته لا تزال مطبوعة في ذهني. لقد عقدت العزم على العودة في اليوم الذي بكى فيه أبي ونحن نغادر هاي فالي، بعد أن حزمنا امتعتنا على عجل، لكنني لن أعود وأنا سائس خيل، أخبرتك هذا في ذلك اليوم.» كان يرمقها بنظرات باردة.

«نعم، اخبرتني.» كانت ليان تشعر بالخوف من دون أن تدرك السبب، وتابعت تقول: «أنا أفهم ماذا تقصد بعودتك إلى هنا. أردت أن تنتقم من جدي، وها إنك تملك هاي فالي الآن. لقد حصلت على ما تريد.»

قال ببطء: «حصلت على نصف ما أريد.»

ابتعدت ليان عنه بضع خطوات وقالت: «لا أفهم.»

«لم أحصل على الحفيدة.»

«ماذا تعني؟»

سرت فيها ارتعاشة، فأحست بالبرد ينتابها على رغم الحر الذي كان يخيم بعد الظهر. غرق بصره في بصرها وقال:

«أريدك أن تصبحي زوجتي.»

«أنت مجنون!»

«لا، أبداً.»

«لماذا تريد الزواج مني؟»

«لماذا يرغب كل رجل في الزواج؟»

«ليس هذا جواباً ملائماً في حالة مثل حالتك. أنا افهم السبب. تريد إنجاز انتقامك، هذا كله انتقام، فأنت لا تحبني، وإلا عدت منذ زمن بعيد.»

«لم تعطني جواباً.»

كان كايل ينظر إليها وقد غام بصره وارتسمت على وجهه امارات اللغز. وكرر سؤاله: «أتتزوجين مني؟»

«إنس الموضوع! إن فكرة الزواج سخيفة، هذا لن يحصل أبداً!»

أجابها كايل بصوت رقيق: «أردت ذلك يوماً، ألا تذكرين تلك الأوقات التي قضيناها في الحظيرة، نحلم ونصمم؟ قلت إنك سوف تتزوجين مني حينما تصبحين أكبر سناً.»

«كنا مراهقين، بالأحرى كنت مراهقة. لم أكن أعي ما أقول، ولا أنت أيضاً.»

دنا منها وأمسك بكتفيها، فحاولت أن تمنع نفسها من التعثر.

«أصبحنا راشدين الآن يا ليان. أقترح عليك أن تفكري بالموضوع.»

حررت نفسها من قبضته وقالت: «لا حاجة إلى ذلك. ما حصل بيننا منذ زمن قد زال نهائياً، وما حصل يومذاك لن يتكرر أيضاً. لقد انجزت النصف الأول من انتقامك عن طريق شخص آخر. ما من وسيلة سوف تخولك انجاز النصف الثاني.»

www.elromancia.com

الفصل الثالث

«يودّ شخص ما مقابلتك يا ليان.»

رفعت ليان ناظريها وهي جالسة على مكتبها. كانت تستقطب احترام موظفي الشركة جميعهم، لكنها خففت من تركيزها على عملها خلال الأسبوع المنصرم، وقد اثبتت لها النتيجة تقاعسها عنه: فصندوق البريد الخارجي يضم على الأقل خمس عشرة رسالة طارئة تنتظر توقيعها، أما الصندوق الداخلي، فكان مليئاً بالبيانات الصحفية والمستندات والرسائل التي تتطلب منها انتباهاً طارئاً. كان على ليان ايضاً أن تجيب على خمسة اتصالات هاتفية، وتطلّع على رسالة تلقتها لتوها بواسطة آلة الفاكس.

نظرت إلى موظفة الاستقبال وقد ارتسمت على وجهها امارة الانزعاج، فقالت لها:

«أنا آسفة يا بات، لكنني غارقة في العمل، ليس لدي الوقت لمقابلة أحد اليوم.»

«لكنه يبدو مصراً.»

قالت ليان بعدما ألقت نظرة على المفكرة: «لم يحدد موعداً.»

«أعرف ذلك لأنني طرحت عليه السؤال، لكنه قال لي إنه يجب أن يراك.»

«من هو يا بات؟»

«ليست لدي أية فكرة.»

كانت موظفة الاستقبال التي تخرجت حديثاً من المعهد راغبة في العمل، لطيفة وتواقة إلى التعلم، وكانت ليان معجبة بها، فأجابتها وهي تحاول أن تخفي نفاد صبرها:

«لا بد من أنه قال لك اسمه.»

«كلا، مع أنني سألته عن اسمه، فاكتفى بالقول انه يجب أن يراك.»

«قولي له ان هذا أمر مستحيل، كوني صارمة، يا بات، كوني مهذبة لكن صارمة في الوقت نفسه. أعرف أن هذا ليس بالأمر السهل، لكنك تؤدين عملك الآن، وعليك أن تتعلمي كيفية التعامل مع الأشخاص غير المرغوب فيهم.»

«هذا الرجل ليس من النوع غير المرغوب فيه. إنه وسيم وجذاب فعلاً، وجهه صارم، شعره داكن، ووجنتاه عاليتان.»

صارم الوجه، داكن الشعر، عالي الوجنتين... وسرعان ما ارتسم في ذهن ليان وجه وانطبع اسم، فلاحظت ولأول مرة بريقاً يلتمع في عيني موظفة الاستقبال، فشرعت تقول لها:

«الآن يا بات...»

«ألا تريدين أن تلقي عليه ولو نظرة خاطفة؟»

«أظن أنه عليّ التكلم معه.» قالت ليان ذلك بقساوة أدهشت الموظفة الشابة، ثم اردفت: «كلام مختصر، لا، ليس هنا في مكتبي. قولي له إنني خارجة، لكن عليه أن ينتظر لبضع دقائق.»

توجهت ليان نحو آلة الفاكس حينما خرجت بات من المكتب، وقرأت الرسالة. إنها رسلة تتعلق بمهرجان الألبسة وتتطلب إجابة عاجلة، فجلست على كرسيها، وتناولت قلماً،

لكن الكلمات الملائمة تاهت عن بالها. فتمتمت غاضبة:

«اللعنة عليك يا كايل آفيري. أينبغي أن تتدخل في هذا الجزء من حياتي أيضاً.»

كانت ردهة الاستقبال في المصنع تحتوي على أثاث أنيق، يطغى عليه اللونين الرمادي والأرجواني، مؤلف من كراسٍ مكسوة بقماش مزدان بالرسوم، وطاولة مصنوعة من الخشب الفاخر، ولوحات رسمها فنانون ذائعو الصيت من جنوب افريقيا.

كان كايل جالساً على كرسي بدا هزيلاً بالنسبة إلى جسمه القوي والطويل. تقدمت منه ليان من دون أن تبتسم، وقالت: «لا يمكنك أن تقحم نفسك هنا وتطلب مقابلتي. على أية حال، ماذا تفعل هنا يا كايل؟»

ابتسم لها وفي عينيه ومضة شر وقال: «تسرني رؤيتك يا ليان.»

«لم تجب عن سؤالي.»

فوقف قائلاً: «أنا ادعوك إلى تناول الغداء.»

«لا أذكر أنني وافقت على الذهاب معك إلى أي مكان كان، ولا أذكر أيضاً أنني تلقيت أي دعوة.»

«ترغبين في دعوة رسمية؟ حسناً، كما تشائين. هلا تناولنا الغداء معاً، يا آنستي العزيزة؟»

«كلا يا كايل، لن ألبي دعوتك. هلا غادرت الآن؟»

«كلا.»

رمقت ليان موظفة الاستقبال التي كانت تنظر إلى المشهد بفضول واضح، ثم قالت بهدوء بعد أن تأكدت من أن كلامها لن يسمع:

«هل يجب أن تكون عنيداً إلى هذا الحد؟»

«دعوتك إلى تناول الغداء معي، وهذه الدعوة ليست بالمسألة الصعبة، إلا إن كان لديك ارتباط أهم.»

«كلا.»

«إذاً، بوسعك أن تأتي معي يا ليان.»

لم تكن تدري إن كان إصراره يزعجها أو يروقها، فسألته: «هل تصر دائماً على نيل ما تبغيه؟»

فقال مازحاً: «دائماً. حسبتك تدركين ذلك.»

«عقدت العزم على تملك هاي فالي، وقد فلحت.»

«هذا صحيح.»

«لكنك لن تحصل أبداً...»

لم تكمل كلامها، وأحست فجأة بالحمرة تخضب وجنتيها، فرد عليها كايل قائلاً: «لا تندرج كلمة أبداً في قاموس كلماتي.»

تسمرت عيناه بوجهها، مما أزكى فيها شعوراً بالارتباك، فأجابته: «ولا في قاموس كلماتي. أرجوك أن ترحل يا كايل.»

«سوف نذهب معاً.»

«كيف يمكنني إقناعك؟ لا استطيع أن اتناول الغداء معك، ألا يمكنك تقبل ذلك؟»

خاطبها بلهجة المنطق: «هذا لن يستغرق سوى بعض الوقت، لقد رأيت معظم الموظفين يغادرون المكتب وأنا انتظرك هنا.»

«ليس لديك أي فكرة عن مدى انشغالي. كان ينبغي عليّ أن أجيب على رسالتين منذ نصف ساعة، كما يتعين عليّ أن أطلع على الكثير والكثير منها قبل انتهاء اليوم.»

«ينبغي على أكثر الناس انشغالاً أن يأكلوا.»

مرّ رجلان أحدهما مدير المصنع، والآخر تاجر ثري، فلاحظت ليان نظراتهما وهما يرمقانها وكايل.

قالت بصوت خافت: «هذا ليس عدلاً يا كايل. أنت تربكني فعلاً.»

«هل ستأتين يا ليان؟»

من الواضح أنه لن يرحل إلا إذا رافقته، ومن الجلي أيضاً أنها لن تأتي عملاً مثمراً ولو لخمس دقائق إن لازمت مكتبها خلال ساعة الغداء، فقالت غاضبة: «هذا إكراه!»

ضحك كايل بصوت خافت وجذاب، ثم قال لها: «هذا أفضل من أن تبقي هنا.»

«يجب أن أعود في أسرع وقت ممكن.»

ضحك مرة ثانية وقال: «إن أبكرنا في الذهاب، أبكرنا في العودة.»

كان كايل قد حجز طاولة للغداء في مطعم ايطالي مشهور. لم تستطع ليان إخفاء تأثرها حينما اقتيدا إلى طاولة محاذية لإحدى النوافذ المطلة على منظر الجبال النائية الخلاب. فقالت له: «قد يدفع الناس رشوة باهظة كي يجلسوا إلى هذه الطاولة. هل لجأت إلى تهديد السيد دي؟»

ضحك الضحكة نفسها، فشعرت ليان وكأن صداها يتردد في قلبها، فيبث الدفء في فؤاد طالت وحشته. فقال لها مؤكداً: «لدي الوسائل التي تخولني الحصول على ما أبغيه.»

«لقد اكتشفت ذلك.»

«السيد دي شخص رومنطيقي. حينما أخبرته بأني سوف

أتناول الغداء مع سيدة بغاية الجمال، وبأنني انتظر هذا اللقاء منذ سنوات، قال لي، يا إلهي، لا بد من أنها سيدة مميزة، فحجز لي الطاولة التي طلبت أن نجلس عليها.»

من الصعب أن تظل غاضبة وهي برفقته، فاستحال عليها أن تمنع عينيها من النظر إليه نظرة باسمة، وتنهدت ثم قالت: «ليتني لا أتأثر بالاطراء. لماذا يهمك أن أتناول الغداء معك يا كايل؟»

«لدي عرض اقترحه عليك.»

حاولت ليان أن تتجاهل تسارع دقات قلبها، فقالت: «سبق لي أن رفضت هذا العرض.»

رفع كايل حاجبيه وهو يضحك، ثم قال: «كان ذلك طلب يدك للزواج، لا عرضاً. ما هو السبب الذي يحملك على الظن أنني سوف أكرره؟»

«ظننت... ظننت أنك تقترح عليّ الطلب نفسه.»

«ما عهدت يوماً التماس رضى المرأة كي تتزوجني.»

نظرت إليه وقد التهبت وجنتاها، ثم أجابته: «أنا آسفة، ظننت أنني فهمت قصدك.»

«أخطأت الفهم إذاً. سوف اطلعك على عرضي فيما نحن نأكل. ماذا تختارين؟»

لم يكن يهمها ما تأكل، ولم تكن تحس بالجوع في تلك اللحظات، كما أنها لم تتمكن من القيام بأي خيار.

كان كايل يحدق إلى وجهها، وإذ أدرك ارتباكها، أخذ لائحة الأطباق وطلب طبقين من المعجنات والقريدس.

قالت ليان بعد أن وضع الطبقان على الطاولة: «لا استطيع أن اصدق كم تغيرت!»

«ألم تقولي لي ذلك سابقاً؟»

«لقد أصبحت...»

راحت تبحث عن الكلمة المناسبة، فقال لها: «أصبحت خبيراً بالحياة وبالناس.»

«إنه التعبير المناسب.»

«أتظنين ذلك لأنني استطيع أن أحتال على السيد دي وأطلب القريدس والشراب؟»

كانت تعلم أنه يسخر منها ثانية، فقالت: «هذا وجه من وجوه خبرتك.»

«هذا لا يعني الكثير يا ليان، تعرفين ذلك.»

«ربما لا، لكن إن جمعنا كل ما أنجزته، كالمصنع وغيره... اسمع يا كايل، يهمني أن اعرف كيف بلغت هذا المستوى خلال فترة وجيزة؟»

هز بكتفيه قائلاً: «إنه الحظ.»

«أظن أن الحظ حالفك جزئياً، لكن كيف أنجزت هذا العمل كله؟»

«هل أنت مهتمة فعلاً بهذا الموضوع؟»

«هذا موضوع يثير اهتمامي مذ التقينا من جديد.»

كف كايل عن المزاح وراح يتحدث عن عزمه القوي على تحسين حاله، وعن الدروس التي تلقاها في المدرسة الليلية ومن ثم في الجامعة، وعن الأعمال التي كان يقوم بها في أثناء الدراسة كي يجني مالاً يؤمن له المأكل والمأوى، وأخبرها عن الشركة الهندسية التي عمل فيها كمبتدىء، وعن المال الذي ادخره، وعن الاستثمار الذي قام به والذي اغل عليه مبلغاً وفيراً دفعه نقداً لقاء شراء الشركة

بعدما تقاعد مالكها الأصلي، وهو رجل مريض، ليس لديه اولاد. وكلمها عن الآلة التي اخترعها، وعلى الثروة التي بدأ يجمعها من جراء هذا الاختراع.

كانت ليان تصغي إليه بهدوء، وقد أدهشها ما قاله لها. وكانت تحدق إليه، إلى نظراته الذكية، ورأسه المتباهي، والخطوط العريضة التي ترسم وجنتيه وذقنه. لقد كان كايل الشاب جذاباً لا يقاوم، لكن كايل الأكبر سناً هو، على حد تعبير بات، أكثر جاذبية.

بعد فترة قصيرة، ألقى نظرة على ساعته وقال: «لا شك في أنك تودين العودة باكراً إلى عملك.»

كانت ليان تشعر بأنها تستطيع أن تجلس معه طوال فترة بعد الظهر، من دون أن تمل.

«يجب أن اذهب.» قالت ذلك وهي تتساءل إن استطاع سماع نبرة صوتها التي تنم عن تردد.

«ليس قبل أن اطلعك على عرضي.» نظرت إليه وهي تترقب كلامه. «أريد أن أقيم حفلة في هاي فالي.»

«حفلة؟» بدت ليان مندهشة، مع أنها أصيبت بخيبة أمل، فقالت له: «خرجت معي لتناول الغداء كي تدعوني إلى حفلة؟»

«ليس هذا تماماً. سوف انظم حفلة حاشدة يا ليان، حفلة ضخمة. لا أزال أذكر تلك الحفلات التي كانت تقام في هاي فالي. كان أبي مكلفاً بإيقاف السيارات، وكنت اساعده في الاعتناء بها، وكان يطيب لي أن انظر إلى المدعوين، وأشاهد الأضواء، وأسمع الموسيقى. زحفت يوماً إلى الشرفة حتى بلغت النافذة، كنت اتشوق إلى رؤية ما في

الداخل، لكن أبي دفعني إلى الوراء. كان يخشى أن يراني أحد وأن يسبب لي ذلك مشكلة.» انثنت شفتاه، ثم تابع قائلاً: «حتى أبي لم يتوقع المشكلة التي سببتها لك ولنفسي.»

قالت ليان بصوت ناعم: «وها إنك تملك هاي فالي الآن، وتريد أن تقيم حفلة خاصة بك.»

أريد أن اتعرف إلى جيراني، إلى مالكي المزارع المجاورة، مالكي السيارات التي كان أبي يوقفها لهم، فيسر دائماً بالبقشيش الذي يناولونه إياه.»

هزت ليان رأسها إذ سمعت نبرة الازدراء في صوته. «لم تقول لي هذا الكلام كله؟»

«أريدك أن تكوني مضيفتي.»

«هل أنت جاد؟»

كانت تنظر إليه وقد تولتها الدهشة. «تمام الجد.»

«لماذا؟»

«أليس هذا واضحاً؟»

نظرت ليان إلى الوجه الصارم، وأرغمت نفسها على عدم التفكير بالرغبة التي كانت تنمو في داخلها، ثم قالت: «هذا ليس واضحاً أبداً. أظن أنه يجب عليك شرح ما قلت يا كايل.»

قال لها: «سوف تكونين المضيفة المثالية.»

«لماذا؟»

«أنت تسكنين بيتاً صغيراً يقع خلف سياج هاي فالي، لكنك ما زلت ليان ديبوا.»

فقالت بنبرة جافة: «أتظن أن اسمي سيحدث تأثيراً ما؟»

أجابها بنبرة قاسية: «أظن أنه يجب أن تعلمي أني أميز

الناس الذين أتعامل معهم على أساس صحيح، فليس لدي وقت اهدره مع الأغبياء والخبثاء والمتكبرين، ولا أريدهم اصدقاء لي. أنا لا أبالي بمن يعرف أنني كنت سائس خيل. أنا لا أخجل من ماضيّ يا ليان. في الوقت نفسه، أريد أن اتعرف إلى جيراني وأتعامل معهم على قدم المساواة.»

المساواة... كانت ليان تفكر بأن ما من أحد يستطيع أن يناقش كايل آفيري بهذا الموضوع إلا وأفحمه هذا الأخير. وتابع قائلاً: «يهمني أن يتقبل يوماً هؤلاء الأشخاص أولادي.»

نظرت إليه مندهشة وقالت: «أولادك؟ ليس لديك زوجة!»

«كان من الممكن أن تصبحي أنت زوجتي لكنك رفضت طلبي.» ثم سألها قبل أن تقاطعه: «هل تفكرين في شخص آخر؟»

التمع بريق في عينيه، ثم تابع قائلاً: «لنقل فقط إنني لا أنوي البقاء عازباً طوال حياتي.»

لم يحاول تكرار عرضه، وسألها: «هل ستكونين مضيفتي؟»

«لا أدري.»

«هل لديك التزامات أخرى؟»

«نعم، لقد قطعنا أنا وجدي صلتنا بهاي فالي، إنها قطيعة شديدة الألم يا كايل. لا أعرف إن كان رجوعي إلى هناك بصفتي مدعوة فكرة جيدة.»

مدّ كايل يده من دون سابق انذار، ووضعها على إحدى يديها. كان راحة يده خشنة من جراء الأعمال الشاقة التي قام بها خلال سنوات طوال، وكانت قوية ودافئة، فأزكت لمستها مشاعر أليمة في قلب ليان. وقال لها: «فكري

بالأمر. قد تساعدينني على إعادة إحياء هاي فالي، فالمنزل يكاد يكون هيكلاً يا ليان، لا أدري لما أهمل جدك المكان خلال السنوات الأخيرة، لكن كلانا يعلم بأنه أهمله فعلاً. ألا ترغبين في رؤية هذا المنزل الجميل من جديد؟»

«طبعاً، لكنك لست بحاجة إليّ لإتمام ذلك يا كايل.»

«أنا بحاجة إليك. إنني أفهم بأمور الخيل، وألمّ بأدوات الزراعة وبكسب المال، لكنني لم أنظم حفلة قط. لا أدري من أين أبدأ.»

«هذا ليس أمراً صعب التحقيق. أنا متأكدة من أنك تستطيع ذلك.»

«فلنحققه معاً.»

كادت ليان أن تختنق حينما سمعت تلك الكلمة الحميمة، فقالت له: «لا تدرك ماذا تطلب مني. لم يعد منزل هاي فالي منزلي.»

«أظن أن شطراً من قلبك بقي هناك حينما رحلت.»

أحكم كايل قبضته على يدها وتابع قوله: «ألا تتخيلين ذلك؟ ألا تتخيلين المنزل حافلاً بالحياة والأضواء، والغرف مزينة بالأزهار، وصالات الاستقبال متلألئة بالأنوار، يعج فيها الموسيقيون الذين يطربون المدعوين بأنغامهم العذبة؟»

نظرت إليه نظرة ساخرة وقالت: «فهمت الآن لماذا حجز لك السيد دي هذه الطاولة، من الواضح أنك رسمت له لوحة.»

ضرب يدها بإبهامه، باعثاً موجات من الاضطراب سرت من معصمها إلى ذراعها، ثم قال لها: «لنعد إلى الموضوع، هل أرسم لك لوحة دعوة يا ليان؟»

«نعم.»

«ألا يغريك هذا؟»

أدارت ليان طرفها وأجالت نظرها في المطعم الحاشد من دون أن ترى أحداً. لقد كان كايل على حق حينما قال إن المنزل الكبير أصبح هيكلاً وان جدها أهمله. فالاستثمار الذي اهدر مال العجوز حرم هذا الأخير فرصة منح هاي فالي الاعتناء الذي يستحقه. وقد آلمته رؤية المنزل وهو متشح بهذا الطابع الحزين ألماً شديداً، وها إن كايل آفيري يحاول بماله وحيويته وحماسه أن يعيد إلى المنزل حياته. لقد كان بوسعها فعلاً أن ترى من جديد تلألؤ الأنوار، وتسمع أنغام الموسيقى تصدح في أرجاء المنزل، فودت من كل قلبها لو تساهم في التحويل والتحسين.

سألها كايل مرة أخرى بصوت ناعم: «ألا يغريك هذا؟»

قالت مترددة: «أنت تعلم أنه يغريني.»

«سوف تكونين مضيفتي إذاً.»

«نعم.»

«حسناً.»

كلمة واحدة تفوه بها، لكنه بدا راضياً. وإذ بليان تدرك أن يده ما زالت تمسك يدها، فسحبتها من دون أن تجرؤ على النظر إليه، وألقت نظرة على ساعتها وقالت: «أنظر إلى ساعتك. كان عليّ الذهاب منذ وقت طويل. لن نستطيع أن نبدأ اليوم في تنظيم الحفلة يا كايل.»

«سوف نبدأ ذلك في يوم لاحق، وسوف نتناول الغداء معاً نهار السبت.»

ترددت ليان، إن فكرة أن تتصرف كمضيفة في الحفلة

التي سيقيمها كايل تختلف عن فكرة أن تبقى دائماً برفقة رجل وسيم يثير غيظها، فقالت بفظاظة: «أفهم أنك تعني غداء عمل.»

رفع حاجبيه وهو يضحك: «طبعاً، أنا لا أعني غير ذلك.»

سألته: «في أي وقت نلتقي وفي أي مكان؟»

«في هاي فالي، عند الظهر.»

كادت تختنق وهي تخال نفسها لوحدها مع كايل في ذلك المنزل الكبير الخالي، سألته: «لماذا في هاي فالي؟»

«إنه المكان المناسب.»

«ليس تماماً. يمكنك أن تأتي إلى بيتنا الصغير سوف أحضر وجبة خفيفة. لن يمانع جدي، وقد يعطينا بعض الأفكار المفيدة.»

قد يشكل الجد رادعاً فعالاً إن نوى كايل القيام بفعل آخر غير تنظيم الحفلة.

«شكراً، لكنني أفضل هاي فالي. إنه المكان الأنسب للشروع في تحضيراتنا.» كان بصره غارقاً في بصرها، فأضاف بلهجة وقحة: «إن كنت تودين الشعور بالأمان وأنت برفقتي، يمكنك أن تجلبي معك قلماً وورقة.»

جمعت ليان يديها وشدت عليهما تحت غطاء الطاولة، ثم أجابته: «الاحتفاظ بقلم وورقة أمر مفروغ منه، لا تزعج نفسك وتأتي لاصطحابي. سوف أذهب إلى هاي فالي بنفسي.»

«حسناً.» ابتسم لها كايل ابتسامة عريضة، ثم أشار إلى الخادم وطلب الفاتورة.

ينام الناس عادة حتى ساعة متأخرة خلال عطلة نهاية

الأسبوع، إلا أن ليان استيقظت باكراً صباح يوم السبت، فلاح لها وجه كايل خلف أهدابها المطبقة. فتحت عينيها رغماً عنها، ووضعت الغطاء جانباً، ثم نهضت من فراشها.

غادرت غرفتها على مهل، وذهبت إلى المطبخ. أوصلت الغلاية بالقابس الكهربائي، ثم فتحت الباب المطل على المصطبة، وجمعت الصحف، وراحت تقرأ العناوين الرئيسية إلى أن سمعت رقرقة الماء. حضرت لنفسها كوباً من الشاي، وحملت فنجاناً إلى غرفة جدها.

جلس في فراشه وقال لها: «استيقظت باكراً يا صغيرتي. لا بد من أنك تفكرين بالموعد الذي ضربه لك ذاك الرجل على ما أظن.»

«اسمه كايل يا جدي، لقد قلت لك ذلك سابقاً. هذا ليس موعداً. أنا متأكدة من أنه لا يعتبره موعداً.»

«لكنك تعتبرينه كذلك.» نظر إليها العجوز نظرة ثاقبة، ثم تابع قائلاً: «أنظري إلى نفسك يا ليان، تبدين قلقة كطفل في أول يوم من أيام المدرسة.»

«ربما لأنني لا أدري إن احسنت فعلاً حينما وافقت على أن أكون مضيفة لكايل.»

كانت تعلم بأن جوابها لم يكن سوى جزء من الحقيقة. لقد ساورتها شكوك بشأن الحفلة، لكنها أمور ثانوية بالنسبة إلى النفور الذي ينتابها حيال فكرة أن تقضي يوماً كاملاً لوحدها برفقة كايل، فقال لها جدها: «لم يفت الأوان كي تغيري رأيك.»

«أظنه قد فات. لقد تعهدت له بذلك، ومن الصعب أن اخذله الآن.»

«لست مدينة لهذا الرجل... لكايل بشيء.»

«هذا غير صحيح يا جدي. أنا أدين له بشيء في غاية الأهمية. نحن الاثنان نعلم أنني ظلمته أشد الظلم.»

قال جدها بفظاظة: «هذا كلام تافه!»

«كان بوسعي أن أخبره بأمر الطفل، ليس آنذاك لأنه كان قد رحل حينما خرجت من المستشفى. لكن كان بإمكاني إخباره عندما التقيت به ثانية، ولا يزال بإمكاني إخباره الآن.»

رد عليها جدها قائلاً: «قررت ألا تخبريه.»

«فات الأوان بعد مرور سبع سنوات، ولم أتحين الفرصة حتى الآن.»

فقال لها جدها بقساوة: «وقد أتت الفرصة اليوم...»

«هذا لن يحل المشكلة. أما في ما يتعلق بالحفلة، فالواقع أنني لا أريد الرجوع عن كلامي. ما فتىء جزء مني يعتبر هاي فالي منزلي تماماً مثلما تعتبره أنت يا جدي، لقد كان كايل على حق. إن لم أوافق على تأدية دور المضيفة، سوف يكلف كايل شخصاً آخر، ولا أظن أنني قد احتمل ذلك.»

كان جدها ينظر إليها نظرة مضطربة، ثم قال: «صدقيني يا صغيرتي، فقد يلحق بك كايل آفيري الأذى. لا أريد أن يحصل ذلك.»

«لن يستطيع ايذائي إلا إذا سمحت له بذلك. ليتك لا تقلق بشأني يا جدي. أنا لم أعد في سن السابعة عشرة. أنا في الرابعة والعشرين من عمري وأعلم كيف اعتني بنفسي.

غادرت ليان البيت الصغير قبل الظهر بقليل. كان بوسعها أن تستقل سيارتها وتسلك الطريق الأساسية، لكن الطقس

جميل وهي تعرف طريقاً قصيرة. كان يطيب لها التنزه في هذه الساعة، حينما ينقشع ضباب الصباح الباكر عن رؤوس الجبال، فتجلو الآكام الشاهقة في السماء الزرقاء الصافية. كان المطر قد هطل خلال الليل، فأزال الغبار عن كتلة من أشجار الأوكالبتوس وأضفى عليها رونقاً منعشاً. وكانت الكروم مترامية في اتجاه واحد، أميال وأميال من العناقيد. أما بالقرب من البيت الصغير، فهناك أرض فسيحة لم تزرع منذ زمن، فتساءلت ليان عن المشاريع التي وضعها كايل لهذه الأرض.

وصلت ليان إلى المنزل الريفي بعد عشرين دقيقة من الهرولة، فرأته لأول مرة منذ أشهر وقد فتحت نوافذه على مصراعيها. كانت ليان على وشك أن تخطو بضع خطوات باتجاه باب المدخل حينما تناهى إلى مسمعها من طرف المنزل صوت متقطع، فقررت أن تسير باتجاه ذلك الصوت.

رأت كايل قبل أن يلمحها. كان يقطع الخشب بواسطة فأس، فوقفت بهدوء. إذ شعرت بالحاجة إلى النظر إليه من دون أن يراها أحد وخلال أطول وقت ممكن.

لقد غاب عن ذهنها ذاك الرجل المتكلف الذي كان يقود سيارة ثمينة ويقصد المطاعم المشهورة كمطعم السيد دي فحل محله رجل ريفي. لم يكن شبيهاً بسائس الخيل الوسيم والجذاب، بل كان شخصاً مختلفاً يقف حافياً ويرتدي سروالاً قصيراً بالياً، وقميصاً غير مردّن يكشف سمرة سواعده المفتولة التي تضاهي فأسه قوة. شاهدته ليان وهو يرفع الفأس بيديه ويهزها إلى الأسفل ثم ضرب بها جزءاً من جذع شجرة ضربة قاطعة، فانقسم إلى قسمين.

كانت تود لو تستمر في مشاهدته، لكنها شعرت بأنها تخترق عزلته فنادته وقد جف حلقها: «كايل.»

استدار وصوّب الفأس إلى الأسفل، ثم اتجه نحوها قائلاً: «مرحباً، لم ألاحظ أنك هنا.»

لكن ليان علمت حينما رأت الومضة التي التمعت في عينيه أنه حزر أنها كانت تنظر إليه، فسألته: «آمل ألا أكون قد أبكرت في المجيء.»

توقف أمامها وقد حمل الفأس في يد، واضعاً اليد الأخرى على وركه. كانت تفوح منه رائحة برية قوية، فظنت ليان لبرهة أنها قد تلمسها لو حاولت ذلك. ابتعدت عنه بضع خطوات وقالت: «يبدو أنك مشغول.»

التمعت عيناه، فأدركت ليان أنها ليست المرة الأولى التي يتأكد فيها من أنه قادر على التأثير عليها.

«قطعت بعض الحطب، ثم قررت أن اقطع كمية أوفر لاضرام النار في موقد غرفة الجلوس.»

قالت له ليان: «لم يحل فصل الشتاء بعد.»

وافقها الرأي وقال: «أنت على حق، لكن ليس من المبكر أن أبدأ بجمع الحطب وقطعه. هل ستشاطرينني أحياناً أوقاتي الممتعة قرب النار يا ليان؟»

«ربما.»

«سوف ننعم بالدفء والراحة، فنتذكر الأيام التي امضيناها معاً في الحظيرة. سوف يكون بإمكاننا تحضير الطعام على نار الموقد، ثم...»

صرخت ليان قائلة: «لا»، وأغمضت عينيها من دون أن تشعر، كي تبدد الصورة التي رسمها لها.

«هل أنت خائفة مني يا ليان؟»

«طبعاً لا.»

«لم تخافي مني قط؟»

«لا تكن فخوراً بنفسك يا كايل. أنا لا أخاف منك الآن أيضاً.»

كانت تتكلم بصوت منخفض فأجابها بنعومة: «ربما تخافين من نفسك؟»

أذهلها كم كان كايل قريباً من الحقيقة! كان سهلاً عليها منذ بعض الوقت أن تطمئن جدها وتؤكد له بأنها قادرة على الاعتناء بنفسها. أما الآن وقد دنا منها كايل وأزكى في داخلها عاطفة جياشة، فهي تتساءل كيف وسعها أن تكون واثقة من نفسها إلى هذا الحد. فقالت وهي تتكلف الحزم في صوتها: «لم أعد طفلة ولا أخاف من أحد، حتى من نفسي.»

نظر إليها كايل، إلى شفتين ترتجفان قليلاً، وإلى عينين عاجزتين عن احتمال نظراته أكثر من بضع ثوان. ثم ضحك ضحكة خافتة وهو يرفع شعرها وراء أذنها وقال: «حان وقت الغداء.»

التقط بسهولة قطعة من الحطب وكأنها لا تزن شيئاً، فتبعته ليان إلى الموقد المصنوع من القرميد، خلف المنزل.

راحت تنظر إليه يضرم النار ولم تعجب لرؤيتها تشتعل بعد بضع دقائق. ثم جلب كايل صينية الطعام من المنزل ووضع اللحم على السفود، وفتح زجاجتين من شراب الأناناس وقدم إحداها إلى ليان. قال لها وهو يبتسم ابتسامة عريضة: «لم اتحين الفرصة كي أجول في السوق وأبتاع أثاثاً للحديقة، لكني لا أظن أن لديك أي مانع من

الجلوس على العشب. انزعي حذاءك وارتاحي، سوف ننتظر قليلاً قبل أن يصبح الطعام جاهزاً للأكل.»

استلقى قربها على العشب في ظل شجرة باسقة، واغمض عينيه. نظرت إليه ليان لبعض الوقت لكنها كانت لا تزال تشعر بالقلق، فحولت نظرها باتجاه الموقد، وقالت: «غالباً ما كنت اتناول الطعام مع جدي هنا.»

لم يأت الجسم المستلقي حركة، فتابعت قولها: «إن والدك هو الذي بنى هذا الموقد، أليس كذلك يا كايل؟»

«أجل.»

كلمة واحدة فقط تفوه بها بقساوة، فارتعشت ليان، وإذ نظرت إلى كايل، رأت الغضب مرتسماً على شفتيه الملتويتين مع أن عينيه كانتا مطبقتين، فقالت وقد تولاها الارتباك: «أنا آسفة، لم اقصد اهانتك.»

«إهانتي؟ أنت على حق، إن والدي هو الذي بنى الموقد، كان يحب أن يعمل بيديه، وكان فخوراً بذلك.»

«إن كان الأمر كذلك، لِمَ تبدو كئيباً؟»

«هل فكرت يوماً في أبي خلال هذه السنوات الطوال؟ أو أنه غاب عن عينك وعن ذهنك منذ رحيلنا؟»

«أنا...» وأعرضت عن الكلام.

«لا أريد جواباً في الواقع، أنا أفضل ألا تجيبيني على أن يكون جوابك كاذباً.»

شعرت بأنها عاجزة عن تبديد كآبته، فقالت: «لطالما أحببت والدك.»

«هل أحببته فعلاً؟»

«كايل... أنا آسفة... لا تعلم...» وانقطعت عن الكلام.

كانت تدرك وهي غارقة في الحزن أن هناك كلاماً يجب أن يبقى سراً.

انتصب كايل وراح يقلب اللحم على السفود، فرأت ليان عضلاته النافرة من ساعديه وأدركت أنه لم يسمع كلامها الأخير لشدة غضبه وقفت هي ايضاً ثم قالت: «أظن أنه عليّ الذهاب.»

أجابها من دون أن يدير رأسه: «لا تذهبي.»

«لا أظن أنه عليّ البقاء.»

استدار نحوها ونظر إليها بعينين كئيبتين وقال: «ليتك لم تحملي اسم آل ديبوا.» ثم لمس وجهها وتابع قائلاً: «هل تخيلت يوماً كم كانت الأمور مختلفة لو لم تكوني حفيدة الجد ديبوا. كنا تزوجنا منذ زمن طويل.»

قالت بصعوبة: «لا داعي إلى ذكر كلام كهذا.»

«لا تذهبي يا ليان.»

«أظن أنه يجب أن أرحل.»

قال بصوت ناعم: «ما زلت أريد أن تكوني مضيفتي.»

«هذه فكرة سيئة، فنحن لا تجمعنا سوى الكآبة.»

«أنا عازم على إقامة الحفلة.»

أخذ يدها متلمساً كفها، وأغرق بصره في بصرها، ثم قال: «الواقع أنك ليان ديبوا، وسوف تكونين المضيفة المثالية.»

كانت يد ليان تتقد ناراً، نار سرت من معصمها إلى ذراعها. ابتلعت ريقها ثم سحبت يدها من يده ووضعتها إلى جانبها.

أما هو فأصر عليها قائلاً: «هل ستؤدين هذا الدور؟ هل مازلت تقبلين بأن تكوني مضيفتي؟»

حدثها شعور بأن تبتعد عن كايل وأن ترحل عن هاي فالي من غير رجعة، وأن تنسى ما عناه ذاك المكان لعائلتها، وأن تنسى ما عناه لها كايل آفيري، لكنه كان لا يزال ينظر إليها بعينين جذابتين، لا تقوى ليان على مقاومتهما، فتمتمت قائلة: «حسناً، آمل ألا أندم على ذلك.»

الفصل الرابع

قالت ليان حينما أنهيا طعامهما: «ماذا عن الحفلة؟»

ضحك كايل وقال: «لم نتمكن من هضم ما أكلناه بعد. هل أنت دائماً مستعجلة؟»

كان متكئاً على جذع الشجرة وقد انفرجت أساريره، كأنه نسي لحظات الكآبة تلك.

ذكّرته ليان قائلة: «من المفترض ان يكون هذا الغداء غداء عمل.»

قال لها موافقاً: «ألم يكن كذلك؟»

«أحب أن أنجز الأعمال العالقة.»

كان وقع تلك الكلمات تافه على مسمعها. ثم قال لها كايل: «أرى الآن كم أنت مهمة بالنسبة إلى المصنع الذي تعملين فيه.»

«أنا أتمم واجباتي. ماذا عن الحفلة...؟»

«غالباً ما كان حضورك مسلياً يا ليان.»

«تعني أنني لم أعد كذلك؟»

«أعني ان بإمكانك ذلك ان أفسحت لنفسك المجال.»

«كان الوضع مختلفاً منذ سبع سنوات. كنا صديقين يا كايل.» ثم أردفت قائلة حينما رأت نظراته الساخرة: «حسناً، أكثر من صديقين.»

«هل تقصدين اننا لم نعد صديقين الآن؟»

قال ذلك وهو ينظر إليها من رأسها حتى أخمص قدميها، مما ولد فيها شعوراً بالغضب.

«لا داعي إلى طرح هذا السؤال. سبق لك ان أوضحت لي أنك تحتقرني وتكره جدي. لا أظن ان الصداقة تبنى على أساس كهذا.»

قال لها كايل بنبرة صادقة: «لقد طلبت منك الزواج.»

«فقط لأن الزواج يتمم انتقامك.»

«تدركين دوافعي كلها.» قال ذلك وقد غام بصره.

قالت له ليان بحزم: «لم تكتم مشاعرك يا كايل. كانت تجمعنا علاقة حميمة وقد زالت الآن.»

بحثت عن حقيبتها، ثم أخرجت منها قلماً ودفتراً، وتابعت قولها: «دعوتني إلى هنا كي نبحث في أمر الحفلة، أظن انه ينبغي علينا ان نفعل ذلك. متى نبدأ؟»

«عليك ان تقرري ذلك.»

قطف غمرة من العشب ومررها على جلد ذراعها الناعم.

استمرت ليان في النظر إلى الورقة التي بين يديها ثم قالت: «حسناً، كم شخصاً تود ان تدعو؟»

«عليك ان تقرري ذلك أيضاً.»

رفعت رأسها وصاحت: «لا أصدق ذلك! قد أكون مضيفتك يا كايل، لكن الحفلة هي حفلتك أنت. يجب ان تعلم كم شخصاً تريد ان تدعو؟»

قال ببطء: «لا أدري حتى من أدعو.»

«هذا كلام سخيف!»

جلس إلى الأمام، فما لبثت نظرة التأني ان اختفت من عينيه، فقال: «أخبرتك السبب الذي حملني إلى إقامة الحفلة. أريد ان أتعرف إلى جيراني، لا يهمني إن لم يصبحوا أصدقاء لي، لكنني بحاجة إلى التأكد بأنهم سوف يتقبلون أولادي.»

أولادي! كرر الكلمة نفسها على مسمعها. من الواضح ان كايل مصمم على الزواج. إن لم يتزوج ليان... من الأرجح أنه لن يكرر الطلب الذي سبق لها ان رفضته... فمن تكون عروسه؟ وتابع كايل قوله: «بصفتي سائس خيل سابق، من الصعب ان أتقن التعامل مع هؤلاء الناس، لذا أطلب مساعدتك على وضع قائمة بأسماء المدعوين.»

«هل أنت جاد في ما تقول؟»

«طبعاً.»

«هل تريد حفلة حاشدة؟»

«أريدها على النحو الذي يجب أن تكون عليه.» انقطع لبرهة عن الكلام ثم سألها وقد تبدل صوته: «أتظنين أنهم سوف يلبون الدعوة؟»

كان لسؤاله وقع مؤثر. إنها المرة الأولى التي يظهر فيها كايل ضعفه منذ عودته، فقالت له: «سوف يلبون دعوتك، فجميعهم متلهفون إلى التعرف إلى مالك هاي فالي الجديد. سمعتهم يتساءلون في المصنع وفي المدينة من هو كايل آفيري؟ ماذا سيفعل بالمزرعة؟ هل هو شاب؟ ثري؟ هل هو...»

أعرضت عن الكلام فسألها باصرار: «هل أنا ماذا؟»

«هذا ليس مهماً.»

«بإمكانك إنهاء عبارتك.»

«متزوج.»

«حسناً.» كانت عيناه تلمعان حينما قالت ليان: «من المتوقع ان تنظم لك اللقاءات الهادفة إلى التمهيد للزواج.»

«لا يتم لقاء إلا بين شخصين يا ليان.»

«أجل.»

أطرقت رأسها ونظرت إلى دفترها ثم قالت: «هلا بدأنا؟»

«أجل يا آنستي.»

سمعت ضحكته وهي تدون كلمتي «قائمة المدعوين» على أعلى الصفحة البيضاء الأولى. وقالت: «فلنبدأ بتدوين أسماء الجيران الأقرب. آل فوريز، وآل براينتس، يان وماريا تايلور.»

قال لها متأملاً: «إنها أسماء ألفت سماعها.»

«أنا متأكدة من ذلك، فهذه عائلات تعيش في الجوار منذ زمن طويل.»

«أليس من بينها زوجان يملكان سيارة قديمة، لونها أخضر قاتم؟»

ضحكت ليان ثم قالت: «إنها سيارة قديمة جداً. الأفضل ان توضع في متحف من أن تقاد على الطرق. أنت تقصد آل وايليز، أجل، هما لا يزالان يقودان تلك السيارة.»

«وهناك امرأة لا ترتدي إلا أثواباً فضفاضة، ولا تعتمر إلا قبعات مزينة بريش النعام، ولا تسافر إلا في عربات الخيل.»

«إنها هازل ماري. الخيل تغيرت مع مرور السنين، أما هي، فلا تزال ترتدي الثياب عينها. هازل مولعة بالحفلات، أعلم أنها سوف ترغب في المجيء.»

«وهناك فتاة في سنك يا ليان اسمها اليزابيت، إليز... لا، ليس هذا اسمها.»

«إلزبت، إلزبت باربر.»

«انها مولعة بالأحصنة، أليس كذلك؟ لم تكن تبرح الاسطبل.»

لم تكن إلزبت، وهي فتاة شقراء يضاهي حسنها تفاهتها، مولعة بالأحصنة، بل كانت مغرمة بكايل. ولم تكن الفتاتان أكثر من رفيقتين في المدرسة، لكن إلزبت عرفت كيف تدعو نفسها إلى هاي فالي، ما من زيارة قامت بها إلا واختلقت عذراً كي تذهب إلى الاسطبل. كان اهتمامها بكايل واضحاً لليان، لكن هذه الأخيرة ما لبثت ان أعرضت عن التذمر من خطط إلزبت حينما تأكدت من هيام كايل بها.

سألها: «هل ما زالت تعيش في الجوار؟»

«نعم.»

في الواقع، لقد عادت إلزبت إلى مدينة «كيب» بعدما طلقها زوجها عقب ثلاث سنوات من الحياة الزوجية أمضتها في مدينة ترانسفال. التقت بها ليان في الطريق قبل بضعة أسابيع فأدهشتها رؤية إلزبت وقد زال جمالها.

قال لها كايل: «أضيفي اسمها إلى القائمة.»

دونت ليان الإسم وهي تقول لنفسها انه لا يهمها من سيأتي إلى الحفلة. سألها كايل: «ومن غيرها؟»

ذكرت له ليان أسماء أخرى وأضافتها إلى القائمة، ثم قالت بعدما دونت أكثر من أربعين اسماً.

«هذه هي كل الأسماء التي وسعني تذكرها.»

«نسينا ان ندون اسم شخص واحد.»

رفعت إليه ناظريها وسألته: «من هو؟»

دغدغ العشب ذراعها، وسمعت كايل يقول: «قد يقول البعض انه الشخص الذي يجب تدوين اسمه في أعلى القائمة.»

إذا بالغضب يتولى ليان.

«لا يمكننا ان ننسى جدك، هو الذي كان سيد هاي فالي لسنوات طوال. لن تكتمل الحفلة إلا بحضوره.»

«قد لا يكون هذا فعلاً حكيماً...»

«لا أوافقك الرأي.»

سوت ليان جلستها على العشب وقالت أخيراً: «لا يتوقع جدي أن تدعوه.»

«هذه طريقة لبقة كي تقولي إنه لن يقبل الدعوة.»

«لم أقل ذلك.»

«لست بحاجة إلى قول ذلك.»

رفع حاجبيه، ثم قال بلهجة الآمر: «من حق جدك ان يرفض الدعوة، لكنني أريد ان أدعوه على أي حال.»

«كايل...»

«هذا ما أريده يا ليان.»

نظرت إليه نظرة مشككة، فرأت الثقة ترتسم في عينيه، والصراحة ترتسم على شفتيه وذقنه. لقد اعتاد كايل آفيري السيطرة على غيره بعدما ابتعد عن هاي فالي.

حوّلت نظرها إلى الدفتر الموضوع أمامها، ثم دونت ببطء اسم جدها في وسط القائمة.

أرادت ليان ان تنتقل إلى موضوع الأزهار والطعام والموسيقى حينما اكتملت قائمة المدعوين، فقال لها كايل: «لا أريد ان أتطرق إلى هذه المواضيع.»

نظرت إليه وقد تولتها الدهشة، وقالت: «لا بد من انني أسأت الفهم. ظننت انك تريد ان أساعدك على تنظيم الحفلة برمتها. لم أدرك انك كنت بحاجة إليّ لوضع قائمة المدعوين فقط.»

«لم تسيئي الفهم يا ليان. لن تكوني مضيفتي فحسب، بل أريد تدخلك ونصيحتك في كل عمل آتيه.»

«لا تريد ان نبحث في أمر الطعام؟»

«أريد ذلك طبعاً، لكن ليس في الوقت الحاضر. لا داعي إلى تنظيم الأمور كلها الآن، سوف نلتقي مرة أخرى في المساء خلال هذا الأسبوع. سوف أوافيك إلى العمل، فنخرج لتناول العشاء معاً، ونبحث في أمور الحفلة.»

كان يبتسم لها ابتسامة عريضة، فافترّت شفتاه عن أسنان قوية بيضاء، ولمع بريق في عينيه الداكنتين، فإذ بنبضات قلبها تتسارع. كان يبدو مفعماً بالحيوية والجاذبية والإثارة، فلا داعي إلى ان تقنع نفسها بأنه لم يعد كايل الذي عرفته قديماً. لم تكف عن التحرق شوقاً إلى كايل القديم، وها هي تتلهف إلى حب كايل الجديد أكثر من قبل. كانت تعلم انه قادر على تعذيبها، لم تكن الغلطة غلطته آنذاك، لكنه قد يقصد الآن تعذيبها.

قالت وقد اختنق صوتها: «لا أظن ان مناقشة التحضيرات خلال العشاء فكرة جيدة.»

«لِمَ لا؟»

«حسناً، إذا لن نتباحث في تلك الأمور اليوم، فباستطاعتي ان أغادر الآن.»

«ما زلت بحاجة إلى مساعدتك.»

انتصب فجأة وأمسك بيديها وجذبها إليه قائلاً: «فلندخل المنزل.»

عجيب كم كان وجوده بالقرب منها يؤثر فيها، فتشعر بالضعف يتولاها. سحبت يدها من يده وابتعدت عنه بضع

خطوات، ثم سألته بعدما استعادت رباطة جأشها: «لماذا؟»

«يحتاج المنزل إلى بعض التجديد، إلى بعض التحسينات.»

«لقد قلت لك ذلك.»

«يمكنك ان تدليني على ما يجب تجديده.»

هزت بكتفيها وقالت: «لقد أصبح المنزل منزلك الآن يا كايل. لا أظن انك ستستغرق وقتاً طويلاً كي تتبين ما يجب تجديده.»

قال مازحاً: «أنت تعرفين المكان أكثر مما أعرفه. سوف أرحب باقتراحاتك.»

وضع يده على وجهها وراح يرسم بأصابعه خطوطاً حول عينيها وعلى شفتيها، ثم تابع قوله: «هلا استكشفت المكان معي؟»

كان من المستحيل رفض طلبه، فقالت غاضبة: «لا أدري ما هو السر الذي يحملني دائماً على الإذعان لطلباتك.»

تمتم بصوت مثير: «دائماً؟»

«إنه تعبير مجازي، لا تغال في تأويله.»

«تعالي.» ضحك ضحكة خافتة أثارت غضبها، ثم قادها إلى مدخل المنزل.

انتابها شعور غريب حينما رأت كايل يدخل المفتاح المزخرف في قفل الباب الخشبي الضخم، وخالجها الشعور نفسه وهي تدخل المنزل معه. كان قد أمسك بيدها من جديد، فلم تقوَ أو بالأحرى لم ترد أن تسحبها. أخذا يتنقلان معاً من غرفة إلى أخرى، فأحست بأنها ترى المنزل الذي ترعرعت فيه بعين الغريب الذي يدخله لأول مرة

فيكتشف المدخل الواسع وردهة الاستقبال بأرضها المكسوة بالخشب الأصفر وبنوافذها الضيقة، ويتبين غرفة الطعام الفسيحة التي تتسع لعائلة مؤلفة من عشرين فرداً، والمطبخ بجدرانه المطلية باللون الأصفر الشاحب وأرضه المكسوة بالقرميد. رأت ليان لأول مرة كم أصبح المنزل رثاً مع مرور الوقت.

قالت بنبرة تنم عن الاعتذار: «كنت أدري أننا أهملنا أشياء كثيرة، لكنني لم أدرك بأنها سوف تسوء إلى هذا الحد.»

رفعت ناظريها فرأت كايل ينظر إليها. فقالت وكأنها تدافع عن نفسها: «إنها مسألة عادة، قد تعتاد رؤية الأشياء فلا تلاحظ انها بحاجة إلى التجديد.»

«سمعت الناس يقولون ان جدك توقف عن القيام بأي تحسينات منذ فترة طويلة.»

«هذا صحيح. ربما كان بإمكانه تحسين بعض الأشياء، لكنه...» انقطعت عن الكلام لأنها أبت أن تحطّ من شأن الرجل العجوز الذي أحبها حباً عظيماً، ثم قالت بلهجة مختلفة: «لم يعرض عن الاعتناء بها. كان يعتني دائماً بهاي فالي.»

قال لها كايل: «أصدّقك.»

«إن المنزل بحاجة إلى الطلي.»

«يحتاج المنزل إلى أكثر من ذلك يا ليان.»

«سوف أخرج الدفتر من حقيبتي وأدون عليه بعض الملاحظات فيما نسير معاً.»

«من الأفضل ان تدوني الملاحظات في ذهنك.» قال ذلك بهدوء، وأحكم قبضته على يدها كي لا تسحبها ليان.

تابعا سيرهما وهما يتحدثان. كانت هناك أشياء أدرك كايل أنها بحاجة إلى التحسين، وكانت هناك أشياء أخرى لا أحد يعلم بها إلا ليان. الصدأ المنتشر تحت درجة السلم الثالثة، والدرابزين الذي كان بحاجة إلى التثبيت، والمصراع الذي لا يفتح فتحة كاملة وقطعة القرميد المفككة في الموقد.

قال لها كايل بلهجة مازحة: «يجب ان أدعك تتعاملين مع الملتزمين.»

قالت له: «شكراً، لا، شكراً لك.»

«آمل أن تساعديني على اختيار أقمشة الستائر ولون طلاء الجدران، وعلى اختيار الأثاث الجديد أيضاً.»

«كلا يا كايل، إن مساعدتي تقتصر على الاقتراحات التي قدمتها لك اليوم.»

«ظننت ان النساء يستمتعن بتصميم زينة المنزل.»

«إنهن يستمتعن بتزيين المنزل الخاص بهن.»

«لقد كان هذا المنزل منزلك يا ليان.»

«لم يعد منزلي الآن.»

قال لها برقة: «كان من الممكن أن يصبح منزلك من جديد.»

انقبضت ليان، لقد كانت مستغرقة في تأمل المنزل وملاحظة الأشياء التي يجب تجديدها، فنسيت بأنه ما زال يمسك بيدها، لكنها ما لبثت ان أحسّت بكل إصبع من أصابعه الممشوقة والخشنة، فقالت وقد تسارعت نبضات قلبها: «هذا غير ممكن. كلانا يعرف لِما تريد الزواج بي. على أي حال، لقد أوضحت لي بأنك لا تطلب يد المرأة نفسها إلا مرة واحدة.»

«هل قلت لك ذلك؟»

«أجل.»

«فينتهي بي الأمر إلى... أين؟»

هل كان يتكلم عن الزواج أم عن المنزل؟ فقالت ليان بحزم: «ينتهي بك الأمر إلى الاعتماد على نفسك في اتخاذ القرارات.»

أضاف قائلاً: «قد لا توافق زوجتي العتيدة على خياراتي.»

تمنت ليان لو لم تؤلمها فكرة وجود امرأة غيرها في حياة كايل، فحاولت ان تقول له بنبرة قاسية: «إما ان تتقبل زوجتك الخيارات التي قمت بها، وإما ان ترغم نفسك على إحداث بعض التغييرات.»

أدركت انها لن تقوى على النظر إليه وهما يسيران قدماً. كانت الآن على عجلة من أمرها، تريد فقط ان تمر بسائر الغرف بأسرع وقت ممكن حتى تتمكن من مغادرة هاي فالي والعودة إلى البيت الصغير.

ترددت قبل ان تدخل غرفة النوم الأساسية التي نام فيها والداها. لا شك في ان كايل وزوجته سوف ينامان هنا أيضاً في يوم من الأيام. سألها ان كان اللون الزهري واللون الرمادي يلائمان الغرفة، فأجابته بصوت منخفض: «إنهما لونان جميلان، لكن لكل انسان ذوقه، وأنا لست مستعدة لفرض ما يعجبني على شخص آخر، سيما في ما يتعلق بالغرفة الأكثر خصوصية في المنزل.» قالت ذلك ثم نظرت مباشرة إلى ساعتها. «إن الوقت متأخر، عليّ الذهاب فعلاً.»

«ابقي هنا لبضع دقائق.»

قال ذلك وقادها إلى غرفتها القديمة، فقالت له ليان: «إنها غرفة مناسبة للضيوف.»

ضحك كايل ضحكة خافتة وأجابها: «إنها أنسب للأطفال، ألا تظنين ذلك؟»

نظرت إليه نظرة فضولٍ وقالت: «ليست هذه المرة الأولى التي تذكر فيها الأطفال.»

«تمنيت دائماً ان أكون أباً! لو سارت الأمور بيننا على ما يرام، لكنّا قد رزقنا أولاداً اليوم.»

شحبت وجنتا ليان حينما سمعت هذه الكلمات، فسألها كايل: «ما بك؟»

«لا شيء.»

«أصبحت فجأة شاحبة اللون. هل قلت كلاماً أحزنك؟»

«كلا!»

«كنا نتكلم عن الأطفال. أهذا هو السبب؟»

هذه هي فرصتها كي تخبره عن الماضي. همّت بالقول له: «لقد رزقنا طفلاً» لكن الكلمات لم تبرح شفتيها. تخيلت في هذه اللحظة ردة فعل كايل. إنه يكنّ لجدها كرهاً عميقاً، فماذا لو علم ان الجد ديبوا كتم عنه خبر حملها؟ لن يكون لغضبه حدّ. لا، لن تخبره اليوم. لا بد من أنها ستضطر إلى إخباره ذات يوم، فمن حقه معرفة أمر الطفل، لكن يجب ان تكون مستعدة لذلك.

ابتلعت ليان تلك الكلمات، فسألها كايل: «ألا ترغبين في إنجاب الأطفال يا ليان؟»

«إن تسنى لي ذلك.»

«إذاً، ما الخطب؟»

«لا شيء. ربما أصبت بضربة شمس.»

«هذا كلام تافه. لقد اعتدت التعرض إلى الشمس، ليس ما قلته هو السبب.»

كان عليها ان تصرف انتباهه عن الموضوع، وبسرعة، قالت له: «يجب ان تصلّح شيئاً واحداً في هذه الغرفة.»

«ما هو؟»

اتجهت نحو النافذة وفتحتها: «إنه شق حفر على العتبة.»

استدارت نحوه وهي تتكلف بهجة ما كانت لتنتابها في تلك اللحظات، ثم تابعت قولها: «هل تذكر الليلة التي تسلقت فيها الحائط حتى بلغت النافذة؟ لقد ترك حذاؤك هذا الأثر على الخشب.»

التمع بريق في عينيه حينما عادت به الذكرى إلى تلك الليلة، فقال: «تباً لي! لقد نسيت تلك الليلة!»

«لقد نسيتها أنا أيضاً، لكنني أتيت إلى هذه الغرفة منذ بضعة أسابيع، في اليوم الذي التقيتك وسلمتك المفتاح. كنت أودع المنزل، فرأيت ذلك الأثر.»

كانت تتكلم بنبرة قوية، آملة ان تلهيه عن موضوع الأطفال، ويبدو ان حيلتها قد نجحت، لأنه كان غارقاً في الذكريات، فسمعته يقول: «كانت العتبة أعلى مما توقعت، فسقطت أرضاً وقد أحدث سقوطي ضجة خافتة.»

«تماماً!»

«كيف غاب ذلك عن ذهني؟ فقد أمضيت نهاري برمته أفكر كيف أدخل غرفتك ليلاً.»

لم تقوَ هي أيضاً على التفكير إلا بهذا الموضوع. تلاشت

السنون حينما تذكرت أنها كانت مستلقية على سريرها وقد ارتدت أبهى ملابسها وفتحت نافذتها، وكانت تصغي إلى كل صوت يتناهى إلى مسمعها: صفير الجدجد، ونقيق الضفدع، وأخيراً، الأصوات التي كانت تنتظرها بنفاد الصبر: وقع خطى حذرة، وحفيف خافت يحدثه شخص يتسلق حائطاً.

كان هذا الأخير يضحك عندما قال لها: «كانت تلك أجرأ مغامرة قمت بها في حياتي! لكن في النهاية، خشيت ان يكون جدك قد سمع تلك الضجة الخافتة التي تناهت إلى اذنيّ الخائفتين كطلقة المدفع، فلم أبقَ في الغرفة أكثر من بضع دقائق.»

«كان ينام في الغرفة المجاورة، فكان بوسعه ان يباغتنا.»

دنا منها كايل وقال لها بنبرة غريبة: «أما الآن فهو ليس في غرفته.»

«يجب ان أرحل.»

«ليس الآن.»

حاولت الابتعاد عنه وقالت: «كايل...»

لكنه أمسك بيديها وجذبها إليه، ثم قال: «أذكر كم رغبت في البقاء معك تلك الليلة، لكننا كنا خائفين.»

انحنى كايل ليقبلها على وجنتها، فلم تحاول صده، ثم رفع رأسه وسألها: «أتتزوجين مني؟»

ما لبثت تلك الكلمات أن أفعمت قلبها بسعادة ما بعدها سعادة، فلم يتبادر إلى ذهنها إلا ان تقول «نعم»، وقد شغفها سحر عينيه.

رفعت ناظريها فإذا به يرنو إليها. وسألها ثانية: «أتتزوجين مني؟»

سرعان ما عادت بها الذكرى إلى الماضي، فمدّت يديها محاولة الابتعاد عنه، وهزت رأسها. «أبداً!»

فقال لها بصوت جاف: «لو سمعك أحد لظن ان طلبي هذا إهانة لك.»

«إنه فعلاً إهانة لي.»

«لكنك أبديت لي منذ قليل عاطفة جياشة.»

ما قاله صحيح، فردّت عليه بفظاظة: «أنت تجيد إغواء النساء.»

«هل تحاولين القول انك لم تتمتعي بالقبلة؟»

«لن تصدقني ان ادعيت ذلك.»

«طبعاً لا. هلا قلت لي لم أنت غاضبة؟»

«لا أحب ان يتلاعب أحد بعواطفي.»

«هل فعلت ذلك؟»

«طبعاً، لقد أثرت عاطفتي، وهذا جزء من خطتك. نعم، تثير عاطفتي حتى استجيب لكل ما تريد. أنت تجيد ذلك، هل تلقنت الإغواء على يد معلمات ماهرات أم اكتسبته بشكل طبيعي؟»

نظر إليها نظرة باردة وقال لها: «انتبهي لما تقولين يا ليان، قد تندمين على كلامك هذا.»

«أبداً! أنا أقرأ أفكارك يا كايل آفيري. تريد الزواج مني كي تنجز انتقامك من جدي. هذا هو السبب الذي حملك على تقبيلي، أليس كذلك؟ إنسى ما حدث الآن يا كايل. لقد حصلت على هاي فالي، لكنك لن تحصل عليّ أبداً!»

كانت متكئة على الحائط، إلى الجانب الآخر من الغرفة، فلم ترَ نظرة عينيه الكئيبتين، وتابعت تقول بنبرة وحشية: «لا تطلب مني الزواج مرة أخرى، فسوف أجيبك دائماً الجواب نفسه.»

نفر أحد شرايين عنقه وقال: «لا تقلقي، لن أكرر طلبي.»

اتجهت ليان نحو الباب وهي ترتجف، فلم تنظر إلى الوراء وهي تغادر الغرفة، ولم تُدر رأسها وهي خارجة من المنزل كي ترى إن كان كايل يراقبها.

حينما وصلت ليان إلى مكتبها صباح يوم الاثنين، بادرها خبر انعقاد مؤتمر بين تجار الألبسة، فغدت أوقات عملها حافلة أكثر وأكثر بالعمل. كانت تقع على عاتقها مسؤولية التحقق من أن المصنع سوف يكون ممثلاً تمثيلاً جيداً في المؤتمر، وذلك بصفتها مسؤولة عن العلاقات العامة. لقد أدركت ليان باكراً ان العمل في حقل العلاقات العامة يلائمها كل الملاءمة، فغالباً ما كان يروقها الرد على الاتصالات، وهي الآن ترحب بتكاثر نشاطاتها لسبب آخر هو صرف ذهنها عن التفكير بأمور أخرى.

انقضت أربعة أيام. وفي كل يوم من بعد الظهر تقود سيارتها من المدينة إلى بيتها الصغير، فيطالعها في كل يوم سياج هاي فالي الطويل، فتحول نظرها وتحدق إلى الطريق التي تسلكها. لم تكن ترغب في رؤية السقف القرميدي ولا السيارة الفضية الكبيرة. لم يعد لهاي فالي ولا لمالكها الجديد مكان في حياتها.

تأخرت في العودة إلى المنزل نهار الخميس. كان جدها في غرفة الجلوس يقرأ مجلة زراعية حينما وصلت، فقبلته

ثم وضعت أغراضها أرضاً، وارتشفت الشراب البارد الذي كان دائماً بانتظارها. جلست في كرسيها وراحت تتمتع بالهدوء المخيم على الغرفة. شتان ما بينها وبين ردهة الاستقبال الفسيحة في هاي فالي، لكن كان لديها رونق جذاب، فقد حرصت ليان على الإحتفاظ ببعض القطع الثمينة: سجادة عجمية، وصندوق خشبي عتيق، وبعض الكراسي الجميلة، وطاولة من الخشب الفاخر زيّنت غرفة الجلوس في هاي فالي خلال أكثر من مئتي عام، ووضعت عليها جرّة من الفخار مملوءة بشجيرة خضراء وبالأعشاب الجافة، كما وضعت على الصندوق مجموعة من صور العائلة.

«هل اتصل بي أحد؟»

«تلقيت اتصالين.»

«آه؟»

«اتصالان من الشخص نفسه، من ذاك الرجل... آفيري.»

سوّت ليان جلستها وقالت: «اتصل بي كايل؟»

«ألم تتوقعي اتصالاً منه؟»

«كلا.»

«لقد قلت لك ان هذا الرجل شرير، وأنا على حق. لقد تبدل طبعك مذ أمضيت معه ذلك اليوم.»

«هل قال لك ماذا يريد؟»

«طلب ان تتصلي به. هذا الرجل يثير غضبي، وكنت على وشك ان أقول له ذلك، لكنني تمالكت نفسي من أجلك. هل ستردين على اتصاله؟»

«ربما، لكن ليس قبل ان احضر طعام العشاء.»

وضعت كوب الشراب على الطاولة، ثم ذهبت إلى المطبخ، لكنها لم تكن تفكر بالطبق الذي كانت تحضره. أيقنت ان كايل لن يتصل بها مرة ثالثة، لكنها لم تدر ان كانت ترغب في التكلم معه.

ما ان أنهيا طعامهما حتى رن جرس الهاتف، فسمعت صوت كايل يقول: «حاولت الإتصال بك مجدداً على أمل ان تقبلي دعوتي إلى العشاء غداً، فقد حجزت طاولة في مطعم اندريز.»

كان مطعم اندريز من أفخم المطاعم في المدينة.

أحكمت ليان قبضتها على سماعة الهاتف وقالت: «لماذا؟»

«حان وقت عقد جلسة التنظيم الثانية.»

أدهشتها نبرة صوته المبتهجة فقالت: «هل تعني أنك ما زلت مصمماً على إقامة الحفلة؟»

«طبعاً، وأظن انك ما زلت مضيفتي.»

«لا أدري ماذا أقول... ظننت ان الأمور تبدّلت بعدما حدث نهار السبت.»

«أعدك بأنني لن أكرر عليك هذا العرض مرة أخرى، لكنني مصمم على إقامة الحفلة.» توقف هنيهة عن الكلام ثم أضاف: «إن حضرت أو لم تحضري يا ليان.»

تخيلت ليان ذاك البريق يلتمع في عينيه، ثم قالت: «كايل...»

«جميع الأشخاص الذين أدرجت أسماؤهم على القائمة قبلوا الدعوة، ما عدا إلزبت باربر، فهي سوف تتغيب عن البلدة لبضعة أسابيع.»

شعرت ليان ببعض الدوار، فأجابته: «حسناً. أنت تنفذ بسرعة ما تصمم على القيام به.»

ضحك كايل وقال: «لقد أطلعتك على أخباري المتعلقة بالحفلة، ماذا عن أخبارك أنت؟ هل سيلبي جدك دعوتي؟»

نظرت ليان إلى جدها، لم يكن يتظاهر بأنه يأكل، بل كان يصغي باهتمام إلى حديثها، فقالت: «لم أخبره بأمر الدعوة بعد.»

لم تشعر بأنها قادرة على القول لكايل انها ليست متأكدة من أنها هي نفسها ستحضر الحفلة.

«أخبريه يا ليان. يمكنك ان تبلغيني قراره حينما نلتقي.»

«لكنني ما زلت غير متأكدة من...»

«سوف نبحث في الأمر غداً. أراك عند الساعة الثامنة.»

تناهت إلى مسمع ليان طقطقة خفيفة حينما وضع كايل سماعة الهاتف. أما هي، فنظرت لبرهة إلى السماعة التي كانت تمسك بها، ثم وضعتها بشدة محدثة ضجة قوية. ألقت نظرة على جدها، فرأت عينيه تلتمعان فضولاً.

في المساء التالي، رفض كايل وهما في مطعم اندريز ان يبحث في الأمور المتعلقة بالحفلة قبل ان ينهيا طعامهما، فراح كل منهما يتحدث عن نفسه.

لقد كانت ليان على علم بما حدث لكايل منذ رحيله عن هاي فالي، لكنها كانت تريد ان تعلم المزيد. لقد كان كايل محدثاً لبقاً، يضحكها حينما يروي لها النوادر، حتى أنه آل به الأمر إلى ان يهزأ بنفسه. كان يرغب هو أيضاً في ان يعرف عنها الكثير، فراحت تخبره عن الشهادة التي نالتها في كيب تاون، وعن الوظيفة التي شغلتها في صحيفة

www.elromancia.com

يومية، فانتهى بها الأمر إلى الارتقاء إلى المنصب الذي تشغله حالياً في المصنع.

قال لها كايل: «أشعر بأنني أتعرف إليك من جديد.»

«ينتابني الشعور نفسه.»

«لقد استحالت الفتاة اليافعة الحسناء إلى امرأة جميلة بلغت مستوى مرموقاً.»

ابتسمت له ثم قالت: «لا أظن انه كان بامكان أحد ان يتوقع المستوى الذي بلغته أنت.»

«هذا صحيح. ألا يطيب لك ان نجلس معاً ونتحادث ونتمتع برفقة بعضنا بعضاً يا ليان؟ نحن لم نتجادل مرة واحدة هذا المساء.»

نظرت إليه عبر نور خافت ترسله شمعة وضعت بينهما، نور يظلل وجهه فيخفف من امارات التصلب التي تعلو ذقنه وشفتيه، ويحول عينيه إلى بحيرتين داكنتين وعميقتي الغور. قد يكون كايل يوماً أباً رائعاً، ربما صارماً، لكن محب.

حاولت ان تكتم الدموع التي كانت تخنقها، ثم قالت وهي مرتبكة: «أجل، إنها أوقات جميلة فعلاً.»

كان يحدق إليها حينما قال: «ليان؟ ما بك؟»

«لا شيء.»

«من الواضح انك حزينة.»

«إنه موضوع لا أريد التحدث عنه.»

«كنت حزينة الحزن نفسه نهار السبت في هاي فالي.»

«لا، ليس بالضرورة.»

«لا دخل لضربة الشمس بهذا الموضوع. كلانا يعرف ذلك. ما الخطب يا ليان؟ ألا يمكنك الوثوق بي؟»

«لا، ليس في ما يتعلق بهذا الموضوع. إنسَ الأمر يا كايل، أرجوك... إننا نمضي سهرة ممتعة، لا داعي لأن نفسدها.»

ما لبث الخادم ان قدم لهما الطعام اللذيذ الذي كان مؤلفاً من السلمون المنقوع في صلصة بنكهة الفطر، ومن الهليون الطري وقطع البطاطا المقلية بالزبدة. أما الفاكهة فكانت تتألف من الفراولة المحلاة بالسكر.

قال لها حينما حررت طاولتهما من الأطباق: «هل نتطرّق إلى موضوع الحفلة؟»

أخرجت ليان قلمها ودفترها، وشرعا في البحث في أمور الحفلة. ثم قال بعدما وضعا لائحة الطعام انه سوف يكلف أحد متعهدي تقدم الطعام في الحفلات في تحضيره، فابتسمت بعد ان تمكنت من السيطرة على شعورها بالاضطراب وقالت: «أليس من العيب ان نتكلم عن الطعام بعدما أكلنا هذه الأطباق اللذيذة؟»

رد لها الابتسامة وقال: «ربما كان هذا من السخرية.»

«كلانا لا يستطيع ان يتنافس في تحضير الطعام.»

«سوف يسرّ اندري ان سمع ما قلته، أظن أنه لا يحب المنافسة. لكننا نستطيع ان نطلق العنان لمخيلتنا على أي حال.»

كانت ليان قد جلبت معها بعض الكتب التي تحتوي على وصفات طهو كي تستمد منها بعض الأفكار، وكان كايل يصغي إليها باهتمام جلي وهي تتكلم.

خلصا إلى إتمام لائحة الطعام الخاص بالحفلة بعد نصف ساعة من الضحك والمزح والمناقشة، فأدركت ليان

بأنهما لا يتقاسمان الذوق نفسه، سيما في ما يتعلق بالحلزون والبطارخ.

قالت ليان: «ماذا عن الأزهار؟»

«لا أريد البحث في هذا الموضوع.»

«لا تريد أزهاراً في حفلتك؟»

«سوف ننظر في الأمر مرة أخرى.»

ألقت ليان نظرة على ساعتها ثم قالت: «ليس الوقت متأخراً.»

«لا أحب ان أبحث في أكثر من موضوع في الوقت نفسه.» ابتسم لها ابتسامة عريضة وتابع يقول: «سوف نناقش موضوع الأزهار في المرة التالية التي نلتقي فيها، ومن ثم ننظر في موضوع الشراب، وبعده نبحث في أمر الموسيقى.»

شعرت ليان بالاضطراب حينما نظرت إلى وجه أكثر الرجال جاذبية عبر نور الشمعة. ابتسمت له وقالت: «لمَ يحدثني شعور بأنك لست سوى محتال؟»

رد عليها وعيناه تلتمعان: «لا تملكين المفتاح لحل هذا اللغز. لم تقولي لي بعد ان كان جدك سوف يأتي إلى الحفلة.»

«لم أسأله بعد.»

«أظن أنه يجب ان تسأليه.»

وقفا وهما يستعدان لمغادرة المطعم، فأمسك كايل بيدها وهما يتجهان نحو السيارة. لم يتكلما كلاماً كثيراً وهما في طريقهما إلى المنزل، فقد أدار كايل جهاز الراديو وأخذا يستمعان إلى الموسيقى. اتكأت ليان على ظهر

مقعدها وأغمضت عينيها وراحت تشتم النسيم العليل الذي هب عبر نافذتها المفتوحة.

سارا معاً حتى وصلا إلى البيت الصغير. وضع يديه على وجهها عند باب المدخل، وقال لها: «نهار الجمعة؟»

«أجل.»

«سوف نتكلم عن الأزهار.»

«حسناً.»

«ليلة سعيدة يا ليان.»

«ليلة سعيدة يا كايل.»

كانت تبتسم حينما رأته يختفي في الظلمة.

اصطحب كايل ليان نهار الجمعة إلى مطعم تناولا فيه طعام العشاء ورقصا أيضاً. خرجا معاً مرتين في الأسبوع التالي، فتناولا أول مرة عشاءً خفيفاً، أما المرة الثانية، فقصدا بيتاً صغيراً يقع في الجبل. كان الجو رومنطيقياً فودت ليان لو يقبلها كايل بدل من ان يتحدث معها.

قال لها حينما أنجزا أخيراً التحضيرات جميعها: «أنا متأكد من ان الحفلة ستلقى نجاحاً كبيراً.»

أما ليان فكانت متأكدة من أمر واحد فقط: لقد أغرمت بكايل آفيري منذ سبع سنوات، وقد أدركت الآن بأنها لن تغرم بشخص آخر طوال أيام حياتها.

www.elromancia.com

الفصل الخامس

«كيف أبدو؟»

رنت إلى ليان تلك العينان اللتان سهرتا على كل مرحلة من مراحل حياتها. نظر الجد ديبوا إلى الثوب الحريري الجديد الفيروزي اللون، وإلى القرطين القديمين المتدليين اللذين زينا أذني والدتها من قبلها. إلا أن العجوز أطال النظر إلى وجهها، إلى الشفتين المبتسمتين، والوجنتين المحمرتين، والعينين الملتمعتين ابتهاجاً.

قال لها بصوت أجش: «تبدين في غاية الجمال. أذكر المرة الأولى التي اصطحب فيها والدك أمك إلى هاي فالي. كانا عاشقين متيمين، لا يستطيعان الانتظار إلى حين يعقد قرانهما، وكانت أمك مشرقة ومفعمة بالحيوية. أنت تذكرينني الآن بالمظهر الذي بدت عليه يومذاك.»

رأت ليان نظرة التألم في عينيه، فاستدارت وقالت له: «شكراً لك.»

«ليتك لا تبدين جميلة كل هذا الجمال، وليت كايل آفيري لم يشتر ملكنا، ليتني استطيع ألا أتعامل مع هذا الرجل، ليته لم يعد إلى هنا ولم يتدخل في حياتنا، في حياتك أنت بالذات يا صغيرتي.»

«لقد اشترى هاي فالي، وأعرف الآن أنني سوف...»

انقطعت عن الكلام لبرهة، ثم تابعت قائلة: «أرجوك أن

تغير رأيك وترافقني يا جدي» هزّ الرجل العجوز رأسه، فقالت له: «لقد دعاك كايل يا جدي.»

«لن يشتاق إليّ ولو لثانية واحدة. كلا، يا صغيرتي، أنا لا أحب هذا الرجل ولا أثق به، وأرفض أن احضر حفلته.»

ألقت ليان نظرة خاطفة على ساعتها وقالت: «وعدت كايل بأن أحضر باكراً قبل أن يصل سائر المدعوين.»

دنا منها الجد وأمسك بذارعها ونظر إليها نظرة قلقة ثم قال: «انتبهي لنفسك يا ليان.»

ابتسمت له وقالت: «تقضي العادة بأن نتمنى لمن يذهب إلى حفلة أن يمضي وقتاً ممتعاً.»

«أريد أن تحترسي منه يا صغيرتي.»

«حسناً، إن كان هذا يسرك. طابت ليلتك يا جدي، لا تنتظر عودتي.» ضمته إليها ثم خرجت من البيت الصغير.

وصلت إلى هاي فالي بعد بضع دقائق. أوقفت سيارتها في الباحة القرميدية، ثم ظلت جالسة في مقعدها بهدوء وهي تنظر إلى المنزل. لقد أمضت هنا معظم نهارها تشرف على التحضيرات الأخيرة: ترتيب أطباق الطعام، وتنسيق الأزهار، وتنظيم المنصة السفلية المعدة للموسيقيين. كانت الفوضى قد خيمت على المنزل لبعض الوقت، لكن الهدوء ما لبث أن عاد إلى أرجائه حينما غادرت ليان المزرعة ورجعت إلى البيت كي تبدل ملابسها.

كم كان المنزل جميلاً هذه الليلة! كانت نوافذه مشعة بالأنوار، وبدا سقفه الشامخ وكأنه خط منحني ارتسم على صفحة السماء الصافية. أما الباب الرئيسي، فقد وضع على جانبيه وعاءان كبيران من الفخار زرعت فيهما أزهار

متدلية حمراء وزرقاء وصفراء. إن ليان هي التي عرضت الفكرة على كايل حينما قالت له: «فلنضع بعض الأزهار خارج المنزل أيضاً.» فرحب بالفكرة وأيدها.

لا ريب في أن كايل علم بوصولها، فقد رأت ليان الباب مفتوحاً، ورأت كايل ينزل أدراج السلم كي يلاقيها.

حبست أنفاسها حينما نظرت إليه. كانت تعلم أن حضور حفلة كهذه يحتم لباساً رسمياً، لكنها لم تتخيل كايل وهو يرتدي سترة أنيقة وقميصاً مزيناً بالكشكش، وربطة عنق سوداء. لقد أضفت عليه هذه الملابس الأنيقة رونقاً، فبدا جذاباً بقامته الطويلة وبشرته السمراء وعضلاته المفتولة.

دنا منها وأمسك يديها، ثم قال بعد برهة طويلة: «تبدين في غاية الجمال يا ليان.»

كأن صدى كلمات جدها يتردد في أذنيها، لكن نظرة كايل كانت مختلفة، إنها نظرة ثاقبة ومقدرة، تظهر ما يجول في خاطر رجل يحدق إلى المرأة التي يحب.

أحست ليان فجأة وكأن الدم يتدفق من عروقها، وإذ نسيت تحذير جدها، ابتسمت لكايل وقد لاح بريق في عينيها، ثم قالت: «هل أنا أول شخص يصل إلى هنا؟»

«نعم، هذا ما ينبغي أن تفعله المضيفة.»

المضيفة... لقد حاولت أن ترفض الفكرة حينما عرضها عليها كايل لأول مرة. إلا أن ليان أدركت الآن أنها ما زالت مغرمة بكايل، فكان لهذه الكلمة وقع جميل على مسمعها.

قال لها كايل: «لم يأت جدك، أليس كذلك؟»

«كلا، إني آسفة.»

«ألم يكن بإمكانه تلبية الدعوة والتصالح مع عدوه؟»

«لم يعد مؤهلاً لحضور الحفلات يا كايل.»

«لا داعي إلى أن تختلقي له الأعذار يا ليان. أنا أفهم السبب حق الفهم. كنت أعمل انه لن يأتي.»

نظرت إليه نظرة قلقة وقالت: «لا تشعر بالإهانة يا كايل.»

غام بصره فجأة، فاستحالت عليها قراءة ما في داخله: «الإهانة؟ أشك في أنه لا يزال قادراً على إهانتي.»

قالت ليان وهي تتكلف البهجة كي تحافظ على جو المرح الذي كان سائداً منذ بضع لحظات: «سوف تكون السهرة ممتعة، فقد كانت تقام هنا حفلات رائعة.»

«اعرف ذلك، لقد قلت لك كيف كنت أختلس النظر عبر النوافذ. طبعاً، إن سائسي الخيول لا يتلقون دعوة إلى حفلات كهذه.»

كانا قد بلغا باب المدخل، فنظرت إليه وقالت: «أنت لا تفوت الفرصة كي تشير فيها إلى الفوارق التي تفصل بيننا، أليس كذلك؟»

«هل تحاولين القول انها فوارق غير قائمة الآن؟»

كانت تكره امارات القساوة التي ترتسم على وجهه ونبرة التحدي التي تتجلى في صوته، فقالت له: «ربما كانت قائمة آنذاك، لكنها لم تعد قائمة اليوم. لقد أصبحت رجل أعمال ناجح يا كايل والناس ينظرون إليك نظرة اعتبار. أنت تفعل كل ما تشاء فعله، وتحصل على كل ما تبغي الحصول عليه.»

«إلا عليك أنت.»

لم تحمل كلماته معنى طلب يد ليان للزواج، إذاً ما من مبرر لخفقان قلبها. لقد طلب منها الزواج مرتين فعلاً، لكن لو كانت نواياه صادقة، لقال لها انه يحبها، إنها الكلمة

الوحيدة الكفيلة بإثبات صدقه، إلا أن شعوراً كان يحدثها بأنها لن تسمع هذه الكلمة أبداً.

«إن المدعوين على وشك الوصول. أريد أن ألقي نظرة أخيرة على الداخل.» قالت ذلك ثم دخلت المنزل.

بعد مرور ساعة، كانت ليان تنظر من حولها حينما أيقنت أن توقعاتها بالنسبة إلى الحفلة قد تحققت جميعها، كان المنزل يضج بأصوات المدعوين وبنبرات ضحكاتهم وبأنغام الموسيقى. كانت الطاولة المستطيلة التي تتوسط غرفة الطعام مزينة بأشهى الأطباق وأفخرها: أطباق الدجاج، وأطباق البط، وأطباق السلطة على انواعها والخبز اللذيذ، أما العُقبة، فوضعت على طاولة صغيرة وتضمنت مختلف انواع الحلوى والفاكهة النادرة. كان المدعوون يأكلون ويشربون وينضمون إلى مجموعات متفرقة، ويستمتعون برفقة أشخاص يعرفونهم ولكن لا يلتقونهم دائماً.

أما كايل، فكان في كل مكان، يتنقل من غرفة إلى اخرى، ويتكلم مع هذه المجموعة وتلك، يلاطف النساء ويتبادل النوادر مع الرجال. رأت ليان كيف كان الجميع يرحب به، فقد ظهر للرجال بمظهر الرجل القوي الذي أضاف إلى مجتمعهم حضوراً مميزاً، وبدا للنساء رجلاً وسيماً، تثير لباقته اعجابهن. فخطر على بالها أن كثيرات هن اللواتي سوف يحلمن بكايل آفيري هذه الليلة.

لم تسمع ليان وهي تتنقل بين المدعوين أي تلميح عن مكانة كايل السابقة في هاي فالي. كان البعض يعلم أن كايل كان يعمل هنا في يوم من الأيام وهو يدرك ذلك تمام

الادراك، لكن من يرى كايل آفيري وهو يرتدي هذا اللباس الأنيق وينضح بالحيوية، ينسى أنه كان يقوم بعمل حقير.

بدأ المدعوون يرقصون بعدما انهوا عشاءهم. كانت الفرقة الموسيقية المؤلفة من ثلاثة موسيقيين والتي كانت ليان قد عرضت على كايل استقدامها فرقة مشهورة، فما لبثت حلبة الرقص أن عجت بالمدعوين، دعا تيد لوارنس ليان إلى الرقص. لقد كان رجلاً يناهز الأربعين من العمر، شعره احمر كث وشارباه مفتولان، لا ينمان عن أي مظهر من مظاهر الأناقة، لكنه نجل أحد أصدقاء الجد ديبوا القدماء. كان دائماً معجباً بليان، فعاملها معاملة الأخ لأخته الصغرى، ولقنها بعض مبادىء الرقص حينما كانت في سن المراهقة وعلى وشك ان تذهب إلى أول حفلة راقصة تدعى إليها. قال لها بعد أن رقصا رقصتين معاً:

«إن رقصك يشرفني، فأنت خفيفة خفة الريشة، ورشيقة كل الرشاقة.»

ابتسمت له ابتسامة عريضة وقالت: «هذا بفضل مهارتك في التعليم.»

«هذا بفضل مهارتك أنت في التعلم من راقص رديء مثلي.»

أبعدها عنه قليلاً كي يسعه النظر إلى وجهها، ثم قال: «سمعت أن جدك تألم حينما علم أن كايل آفيري هو الذي اشترى هاي فالي.»

ترددت ليان لبرهة ثم أجابته: «لم يكن مسروراً لكنني أظن انه تقبل ذلك.»

من المهم أن نعلم ما هي مشاريع كايل المتعلقة

بالمزرعة. لم أتعرف إليه قط. إنه مثير للاعجاب، أليس كذلك؟»

رقصت ليان مع سائر الرجال بعدما رقصت مع تيد، بينهم من كان في سن والدها، وبينهم من كان أكثر شباباً، وقد عاش معظمهم في البلدة منذ فترة طويلة. لم يكن المدعوون جميعهم مزارعين، فقد دعا كايل بنفسه أشخاصاً اقبلوا من المدينة، وهم بناؤون وصناعيون ومهندسون ومصرفيون ذائعو الصيت، وجميعهم كانوا يتكلمون عن مالك هاي فالي الجديد كلاماً حسناً.

«هل تسمحين لي بهذه الرقصة؟»

بدأت الفرقة تعزف لحناً جديداً. استدارت ليان حينما سمعت ذاك الصوت المألوف، ثم ابتسمت للرجل الذي كانت ترقص معه وقالت له: «شكراً لك يا مايكل، لكنني أظن أن مضيفنا يريد ان ارقص معه هذه الرقصة.»

قال لها كايل حينما ضمها بذراعيه: «أنا انتظر هذه الرقصة.»

رمته ليان بنظرة ضاحكة وقالت: «إن كان ذلك صحيحاً، فلا شك في أنك انتظرت كثيراً قبل أن تسألني.»

«أردت فقط أن أقوم بواجباتي على أكمل وجه. أظن أنني رقصت مع النساء جميعهن.»

«هذا من كرم أخلاقك.»

«أعرف ذلك.»

ابتسم لها ثم جذبها إليه. وسرعان ما تبدلت الموسيقى، فأصبح اللحن ناعماً وبطيئاً، وكأن كايل اعطى إشارة إلى الفرقة الموسيقية. كانت ليان تنتظر هي أيضاً هذه الرقصة،

فألقت رأسها على كتفه واغمضت عينيها، راحا يتمايلان ببطء، فأحست بقميصه تلمس وجنتها، وسمعت نبضات قلبه القوية. كان يغمرها بيديه ويداعب ثوبها الحريري الناعم، فلم تدرِ ليان كيف تكتم السعادة التي افعمت قلبها.

لم تدر كم طال بهما الرقص. لم يرخ كايل ذراعيه إلا حينما سكتت انغام الموسيقى، ففتحت ليان عينيها. كانت الفرقة تعزف منذ ساعتين من دون توقف فحان الوقت كي يرتاح الموسيقيون قليلاً.

وضع كايل ذراعه على كتفها وهما يسيران نحو طاولة الشراب. كان بعض المدعوين العطشى من جراء الرقص مجتمعين هناك. تناول كايل كوباً من شراب التفاح، وقدم كوباً آخر إلى ليان.

سأله بيل هاريس: «قل لي يا كايل، ما هي مشاريعك بالنسبة إلى الكروم؟»

كان بيل قد تولى حديثاً الاعتناء بكروم أبيه، وهو وزوجته ساندي كانا رفيقي ليان في المدرسة. فقال كايل: «لا أنوي احداث تغييرات جذرية، أريد أن أبقي الكروم على حالها، فهي تبدو بحالة جيدة.»

«هل ستتخذ هذا المنزل مقراً دائماً لك؟» ألقت ساندي نظرة خاطفة على ليان حينما طرحت عليه هذا السؤال، فحبست هذه الأخيرة أنفاسها وهي تنتظر الجواب.

«لدي بعض المشاريع في سائر أنحاء البلد، لكنني آمل أن امضي معظم أوقاتي هنا.»

«يسرني سماع ذلك.» إنه صوت يان تايلور الذي بدأ يشارك في الحديث. كان يان خبيراً متمرساً في الزراعة،

يزرع أرضه منذ كان الجد ديبوا يعتني بكرومه. وتابع قائلاً: «أنا لا أثق بالمزارع الغائب عن أرضه.»

قال له كايل: «أوافقك الرأي.»

ثم سأله بيل مجدداً: «هل وضعت يا كايل مشروعاً للحقول الواقعة على الحدود الشرقية؟ إنها حقول مهملة منذ سنوات. أظن أنك سوف تزرع فيها بعض الكروم أيضاً.»

كانت الحدود الشرقية تبعد بضعة أميال عن البيت الصغير الذي تعيش فيه ليان مع جدها. كانت ليان قد طرحت على نفسها السؤال نفسه وهي تسير عبر الحقول الخالية قبل بضعة أيام. فقال كايل: «إنني أفكر حالياً في بناء مركز تجاري صغير هناك.»

استغرقت تلك الكلمات بضع لحظات قبل أن تحدث أثراً على مسمع ليان، وإذ ارتسمت امارات الدهشة على وجوه الواقفين حول كايل، جمدت ليان، وهمس بيل قائلاً: «مركز تجاري! هل أنت جاد؟»

«تماماً.»

ابتعدت ليان عن كايل بحجة أن الشراب نفد من كوبها وأنها مازالت عطشى. ملأ الخادم كوبها لكن يدها كانت ترتجف، فكاد الشراب يندلق. رفعت ناظريها فرأت تيد يرنو إليها، وقد بدت على وجهه امارات الاهتمام.

تحلق معظم المدعوين حول كايل وقد أدهشهم تصريحه، فتدفقت عليه الأسئلة: «مركز تجاري؟»

«كم تبلغ مساحته؟»

«هل يمكنك أن تبني متاجر على أرض زراعية؟»

«متى ستباشر البناء؟»

«هل تمت الموافقة على تصاميمك؟»

رفع كايل يده، ورأته ليان يبتسم، ثم قال: «مهلاً، سوف أشرح لكم الموضوع.»

قال ان بوسعه إعادة تأهيل هذا القسم من الأرض لأغراض تجارية، وانه قام بجميع الاستعلامات الضرورية، وانه ليس من مشكلة في بناء متاجر على تلك الحقول بالذات، لكنه لم يكن عازماً على تشييد مركز تجاري واسع النطاق.

«لا أنوي تشييد مركز تجاري ضخم. إنه مركز معد كي يكون نوعاً من مجمع تجاري للمزارعين. معظمكم مرغم على النزول إلى المدينة لابتياع حاجاته. أنا أنوي بناء مركز فسيح يضم متاجر لبيع الأدوات الزراعية وعلف الماشية والأدوات الخاصة بركوب الخيل، أشياء مماثلة. وكنت أفكر ببناء مطعم.»

مطعم... الناس يتناولون العشاء حتى ساعة متأخرة من الليل على قيد انملة من البيت الصغير، والموسيقى الصاخبة، وهدير السيارات، وصرير المكابح... شعرت بالدوار حينما تصورت هذا المشهد، لا بد من أن جدها سوف يكره كايل لدرجة الثأر منه!

سألت ساندي هاريس كايل بلهجة المرأة العملية: «كيف نصل إلى هناك إن سلكنا الطريق الرئيسي؟»

فقال لها كايل: «لا مشكلة في هذا الموضوع أيضاً. الواقع أنه من السهل امداد طريق على طول سياج هاي فالي».

ثم قال تيد لورانس بصوت منخفض: «لقد فكرت بالأمور كلها.»

«إنه العمل الذي أزاوله.»

انتبهت ليان لنبرة صوته القاطعة التي تنم عن عزم وجرأة خولاه لأن يصبح متعهد بناء ناجح.

كانت الأسئلة لا تزال تنهال عليه، لكن ليان كانت متأكدة من أن المدعوين سيصابون بخيبة أمل وبصدمة حيال فكرة تحويل أرض كانت دائماً أرضاً زراعية إلى أرض يتم فيها إنشاء مركز تجاري. إلا أنها لاحظت بأنها أخطأت الظن، فالاهتمام باد على كل وجه، ما عدا وجه تيد لورانس، والأشخاص الآتين من المدينة رأوا أن المشروع المرتقب يشكل مصدراً للمال والعمل، أما بالنسة إلى المزارعين، فلن تلحق بهم هذه الفكرة الأذى، فلا أحد منهم يملك أرضاً قريبة من الحدود الشرقية: يبدو أن مشروع كايل يثير اهتمامهم فعلاً، لأنه سيضع حداً لنزولهم إلى المدينة كلما احتاجوا إلى الطعام وإلى الأدوات الزراعية، وقد لاقت فكرة انشاء مطعم في بلدة تفتقر إلى مراكز الترفيه ترحيباً شاملاً وخاصاً.

تساءلت ليان إن كان أحد منهم فكر في الجد ديبوا، ربما القليل، على حد ظنها. لقد كان دائماً رجلاً صعباً، لا بد من أن يقول معظم المزارعين إنه لن يحصل خير إن اغضبت فكرة انشاء المجمع الجد ديبوا، لكن ربما قالوا انه ينبغي عليه أن يتقبل ذلك أو ينتقل للعيش في مكان آخر. عندئذ، شعرت ليان بأنها مريضة فعلاً، فسرت فيها ارتعاشة من صدغيها حتى رأسها الذي كاد ينفجر من الألم.

كان تيد ينظر باتجاهها مرة أخرى، أما هي، فنظرت باتجاه المكتبة مشيرة إليه بأنها تريد أن تخاطبه. دخلت

ليان المكتبة وجلست على كرسي ووضعت يديها على رأسها الذي يؤلمها، ثم قالت لتيد: «هل يسعه فعلاً تنفيذ هذا المشروع؟»

«أجل، على ما يبدو.»

«كيف يسعه أن يبني مجمعاً تجارياً على أرض زراعية؟»

«سمعت ما قاله يا ليان. كايل آفيري ليس غبياً. حينما يقول إنه سيباشر إعادة تأهيل الأرض، فلا بد من أنه ملم بما يتكلم عنه.»

أجابته بلهجة مصرة: «يجب ردعه عن ذلك.»

«ربما لن نتمكن من ردعه.»

قالت بنبرة قاسية: «أنا أرفض ذلك، أرفضه رفضاً قاطعاً. يجب أن نجد وسيلة لردعه، وسوف نجدها. لا أدري كم سيكلفني هذا الأمر، لكنني لن أتراجع أبداً، يجب أن أردعه.»

حينما غادر آخر المدعوين، قالت ليان لكايل: «يجب أن نتكلم معاً.»

«بكل سرور.»

كان ينظر إليها نظرة باسمة، ثم تابع قائلاً: «أظن أن الحفلة كانت ممتعة، أليس كذلك؟»

قالت له: «كانت ممتعة من وجهة نظرك أنت.»

«ماذا تعنين بكلامك؟»

«عقدت العزم على أن تفتن الحضور وقد نجحت في ذلك. ظهرت بمظهر المضيف الأنيق والوسيم والثري الذي لوح بعصاه السحرية فسحر معظم الحاضرين. لقد تقبلوك يا كايل، تماماً كما أردت. وأكثر من ذلك، سوف تنهال عليك

دعواتهم، سوف تكون الرجل العازب الأكثر شهرة على بعد أميال وأميال.. أجل يا كايل، لقد كانت حفلتك ممتعة وحاشدة وناجحة ورائعة...»

«حري بك أن تسري بذلك بصفتك مضيفة الحفلة، إلا أنك تستشيطين غضباً، وأنا لم أرك في حياتي وأنت على هذه الحال. لماذا يا ليان؟»

«لست بحاجة إلى أن تسألني لماذا؟»

«لا أشك في أنك ستخبرينني السبب.»

كانت ليان قد طلبت مهدئاً من إحدى السيدات التي كانت تحتفظ بمجموعة من الأدوية في حقيبتها، فخفت حدة الألم، وباتت قادرة على التحدث مع كايل من دون أن تطعن خناجر الوجع صدغيها، فقالت له بسخط: «مجمع المزارعين التجاري!»

«هذا هو السبب؟»

«لا تتظاهر بالدهشة يا كايل، لن أتحمل ذلك.»

«هل فوجئت فعلاً بالخبر؟»

«فوجئت؟ هذه كلمة منمقة لا تعبر عما أصابني. أنا ما زلت اشعر بالدوار يا كايل.»

«انني آسف.»

دنا منها كي يمسك يدها، فما لبثت أن تراجعت إلى الوراء. لقد كانت منذ بضع ساعات ترقص بين ذراعيه وهي مغمضة العينين، لا تفكر إلا باللحظة التي يغادر فيها آخر مدعو هاي فالي، فتغدو وحيدة معه. ربما أمضيا أوقاتاً ممتعة، وربما تجرأت على أن تبوح له بحبها، وعلى أن تخبره بأمر الطفل.

نظرت إليه، فبدا لها وهو يرتدي تلك السترة السوداء وكأنه نمر مفترس، فكان من الصعب أن تصدق أن أحلامها استحالت كابوساً، فقالت له وكأنها تقذف كلماتها قذفاً: «لست آسفاً على أي شيء! لقد استمتعت بالصدمة التي أحدثها تصريحك على الحضور. هل تعلم أن جدي حذرني بأن احترس منك قبل أن أغادر البيت.»

لمع بريق في عينيه الداكنتين فقال لها: «لم أقصد ايذاءك يا ليان.»

«إلا أنك الحقت بي الأذى فعلاً. لماذا لم تخبرني عن مشاريعك يا كايل؟ كان يسهل عليك ذلك.»

«ربما لأنني شعرت بأنني لست مجبراً على إخبارك بالتفاصيل.»

«هذا كلام تافه! اصريت عليّ أن أكون مضيفتك، فقد كنت حريصاً كل الحرص على أن تلقى حفلتك نجاحاً، فظننت أنني لن أساعدك إن علمت بمشاريعك، أليس كذلك؟»

لم يجبها كايل. كان صمته مهيباً، لكن ليان كانت غاضبة جداً، فصاحت به قائلة: «هذا جزء آخر من انتقامك.»

«أهذه هي وجهة نظرك؟»

«كيف تكون وجهة نظري إذاً؟ لقد كانت هذه الحقول دائماً مخصصة للزراعة. ما من سبب لاعادة تأهيلها سوى انتقامك.»

فقال بلهجة مقنعة وكأنه يتوقع أن تصغي إليه ليان وتصدقه: «إن هذه الحقول مهملة منذ سنوات لأن نوعية التربة في هذه البقعة بالذات لا تصلح للزراعة. أنا لم أعد أعمل في الاسطبل يا ليان، إن شئت أم أبيت، لقد اصبحت

رجل اعمال ولي وجهة نظر خاصة. أنا لن أباشر تنفيذ مشروع زراعي غير منتج، وهذه هي الحال بالنسبة إلى الحقول الواقعة على الحدود الشرقية.»

كان على ليان أن تلتزم الصمت الآن. فقد اقرت لنفسها بأن ما قاله كايل ليس بعيداً عن الحقيقة، فأرض هاي فالي خصبة، باستثناء الجهة الشرقية، وقد حاول جدها مراراً أن يزرع تلك الحقول، لكن من دون جدوى. كما ان اسلافه لم يحالفهم الحظ أيضاً. ولا شك في أن كايل الذي عاش في هاي فالي حتى سن الثالثة والعشرين يعلم لماذا لم تزرع تلك الحقول قط، فقالت له بهدوء: «ربما لم تكن تلك البقعة من الأرض خصبة، لكن يمكنك أن تجد نباتاً قد ينمو فيها.»

«أشك في ذلك، على أي حال، أنا أفضل فكرتي.»

«أنا أكرهها!»

«إنك تبالغين يا ليان، فالمشروع لن يكون مصدر جلبة وزحمة، فهو لن يكون سوى مجمع تجاري خاص بالمزارعين، لن يكون سوى مكان تتوفر فيه حاجيات الناس الذين يعيشون هنا وفي الجوار.»

«لن يكون سوى مكان بشع وقبيح!»

«أنت مخطئة. أنا أنوي تشييد بناء ريفي يتناسب مع طبيعة الأرض ومع طراز البيوت الهندسي.»

كان كل ما قاله كايل مقنعاً ومنطقياً، ما عدا ناحية واحدة فقط، فقالت ليان بصوت خافت: «لا يمكنك أن تفعل ذلك بجدي.»

التمعت في عيني كايل ومضة شريرة فقال لها: «حقاً؟ ولم لا؟»

«إنه يسرح النظر في تلك الحقول في كل يوم من أيام حياته، يجلس على المصطبة ويسرح النظر في الحقول والجبال المحدقة بها. إنه يحب هاي فالي، وإن بيعه المزرعة لم يبدل مشاعره. فهو ما زال يعتبر هاي فالي منزلاً له، حتى الآن، بعد أن اصبحت ملكاً لغيره. إن بناءك هذا المجمع التجاري سوف يدمر حياته.»

«يدمر حياته؟ هل تظنين أن جدك تساءل يوماً عما فعله بوالدي؟»

سمعت ليان نبرة صوته المتأثرة ورأت الشحوب يعلو وجهه. حاولت الابتعاد عنه وهو يدنو منها لكنها لم تتحرك بسرعة، فقبض على معصمها بيد من حديد، وقال: «لقد تفوهت بهذه الكلمات كي تثيري شفقتي. ربما نجحت، ولكن جزئياً، فأنا لم انس ما فعله بنا العجوز ديبوا. هل تظنين أنه قضى ليلة واحدة من دون نوم، وهو يفكر بالشعور الذي تولى أبي حينما أعطي ساعة واحدة فقط كي يغادر هاي فالي؟ هل فكرت يوماً بهذا الأمر؟ قولي لي يا ليان، هل فكرت به؟»

«كايل.»

«لقد دمر جدك حياة والدي كما لو كان أفرغ في رأسه رصاص مسدس. لقد ولد أبي في هاي فالي، هل تعرفين ذلك؟ وقد عمل مثلي في الاسطبل وكان دائماً فخوراً بعمله. كان يخبرني عن الأحصنة التي اعتنى بها وعن أولاد عائلة ديبوا الذين علمهم ركوب الخيل. حينما انيطت به مهمة اخرى في المزرعة، علمني كيف أكون فخوراً بعملي. تقولين ان جدك يعتبر هاي فالي منزلاً له حتى الآن وقد

اصبحت ملكاً لغيره، فاقول ان أبي كان هو أيضاً يعتبر هاي فالي منزلاً له. فقد ولد هنا، وعاش هنا، وظن أنه سيموت هنا أيضاً، لكنه فقد منزله خلال دقائق، فغدا رجلاً بلا مأوى وبلا عمل، لا يعرف إلى أين يذهب. لم يكن لديه أي فكرة عما حصل بيني وبينك في الحظيرة، فأصيب بصدمة قوية حينما طردنا.»

همست ليان: «أنا آسفة.»

تابع كايل قائلاً: «أكثر من ذلك، لقد توفي أبي بعد بضعة أشهر على مغادرتنا هاي فالي.»

«لا!»

«أجل. لم يكن رجلاً طاعناً في السن، فظننت يومذاك ومازلت أظن حتى الآن أنه توفي من جراء نوبة قلبية.»

كانت ليان ترتجف الآن، لكن كايل لم يلاحظ الحزن الشديد الذي تولاها، كانت يده لا تزال تقبض على معصمها قبضة محكمة ومؤلمة، فهمست: «يا للتعاسة، أنا حقاً آسفة يا كايل.»

قال بلهجة ساخرة: «آسفة؟ هذا كل ما لديك قوله؟»

«أنا أعرف أنها ليست كلمة معبرة، لكنني لا أدري ما أقول.»

نظر إليها، فرأت ليان خلف أهدابه السوداء عينين تتقدان غيظاً، فقالت مرة أخرى: «أنا آسفة.»

«ربما أنت حقاً آسفة لما جرى، الآن، لكنك لم تحركي ساكناً يومذاك!»

«لم يكن بوسعي فعل أي شيء!»

«كان بوسعك أن تأتي إلينا وتساعدينا.»

«كلا.»

كان من الصعب عليها أن تكتم الدموع التي اختنقت في حلقها، فالدموع لن تهدىء من روع كايل الساخط والحزين، بل انها قد تزكّي سخطه.

«كان بوسعك أن تلحقي بجدك...»

«كلا...»

«كان بوسعك أن تعقّليه، أن تقولي له الحقيقة، أن تقولي له إنني لم أجبرك على فعل ما لا تريدين فعله. ربما لم يغير ذلك مجرى الأحداث، لكنك كنت حاولت على الأقل. إلا أنك لبثت متوارية عن الأنظار، تنعمين بأمان المنزل، لبثت صامتة. أظن أنه لم تكن لديك الجرأة الكافية كي تقولي لجدك انك اردت حبي بقدر ما أردت حبك. لقد كنت الأميرة المعبودة...»

كان كايل قد أطلق العنان لسخطه، فبذلت ليان جهداً كي تحافظ على رباطة جأشها. كان ينبغي عليها أن تهدىء من روع كايل بطريقة أو بأخرى. يجب أن يعلم في يوم من الأيام حقيقة الطفل، لكن الوقت لم يكن ملائماً الآن. لا يمكن البوح بسر كهذا إلا بهدوء وبقليل من الانفعال. همست ببطء: «جرت أحداث لا تعلم بها.»

«قد جرت احداث لا تعلمين بها ايضاً يا ليان، احداث لم اخبرك بها بعد. هل عرفت يوماً أن جدك ضربني؟»

صاحت وقد راعها ما سمعته: «لا!»

«نعم.»

أفلت كايل معصمها ونزع سترته الأنيقة، ثم رفع قميصه الأبيض حتى بان كتفاه، وأدار ظهره إلى ليان وقال لها: «أنظري هنا.»

ما كان منها إلا أن تراجعت إلى الوراء. لم تدر لماذا أبت أن تنظر إلى ما أراد كايل أن يريها إياه، مهما كان، لكنه لم يحفل بترددها، فصاح بلهجة آمرة: «أنظري!»

«لا أريد... لا أستطيع.»

«بلى تستطيعين. لقد كنت متسترة منذ زمن بعيد! آن الأوان كي تري وكي تعرفي.»

«أرجوك يا كايل.»

«أنظري يا ليان! أنظري أيتها المرأة اللعينة!»

نظرت إلى ظهر كايل فشعرت بالغثيان حينما رأت ثلاث ندب جافة، لكنها لا تزال ظاهرة. دنت منه ووضعت يدها على الندب الثلاث، فقال لها بنبرة أخف حدة: «ماذا كنت فعلت يومذاك؟»

كان يعلم بأنها أصيبت بصدمة شديدة، فشعر ببعض الشفقة تجاهها.

«كنت حاولت أن أواسيك.»

ما ان لمست أصابعها الندب حتى أجفل كايل وتصلب جسمه، فقالت له ليان بصوت مرتجف: «كنت قد فعلت كل ما بوسعي لأواسيك. ليتني استطيع ان افعل شيئاً الآن.»

«لقد فات الأوان.»

«لم يفت الأوان كي أقول لك إنني آسفة.»

قال بفظاظة: «لقد فات الأوان بالنسة إلى أبي.»

التزمت ليان الصمت وقد أدركت أنها لا تستطيع الكلام. كانت عيناها مسمرتين بالندب الظاهرة على ظهر كايل، وكانت تقول في نفسها: كيف أمكنك ذلك يا جدي؟ ما ان راحت تمرر أصابعها على الندب حتى استدار كايل وضمها

بذراعيه ثم رفعها وحملها وخرج من الغرفة إلى الممر المؤدي إلى الحظيرة، فصاحت به قائلة: «دعني! دعني!»

لم يجبها كايل، بل تابع سيره مسرعاً وكأنها لا تزن شيئاً، وراح يشق طريقه عبر الظلمة. أما ليان، فكانت خائفة منه، وهي لا تدري إلى أين هما ذاهبان. كانت تتوقع مشهداً مختلفاً، فقد تخيلت كايل وهو يقبلها على وجنتها بعد أن يغادر المدعوون جميعهم وقبل ان تعود إلى البيت الصغير.

كان الممر مقفراً وموحشاً، وقد علقت أوراق الأغصان بثوب ليان وكادت أن تمزقه.

كان الجو مفعماً بصرير الحشرات، فتناهى إلى مسمع ليان صوت فأرة تلوذ بالفرار بين الحجارة المتناثرة. أما كايل، فكان يسير كالمجنون، لا تعوقه الأغصان ولا الحجارة. ما ان وصلا إلى الحظيرة حتى دفع الباب برجله ووضع ليان على الأرض، ثم انحنى وقبلها على وجنتها، فهجرها الشعور بالخوف واحست بأنها بين أيد أمينة. كانت تريد أن تستمتع بلحظات السعادة هذه التي استحالت منذ سبع سنوات لحظات مأساوية لا تنسى ولا تمحى. أما الآن فهي متأكدة من أن كايل ما زال يحبها، وكانت على وشك أن تطرح عليه هذا السؤال حينما قال لها بنبرة قاسية: «هذه غلطة.»

نظرت إليه بعينين مذهولتين، فقال لها ثانية وهو يبتعد عنها: «نعم، إنها غلطة.»

همست قائلة: «كايل.»

«يجب أن نضع حداً لذلك يا ليان.»

قالت له وقد شعرت بالاهانة: «لِمَ شرعت في ذلك؟»

«تباً لك! أنت لا تدرين ماذا فعلت بي حينما لمست أصابعك ندوبي! لم استطع أن اعرض عن رغبتي في تقبيلك!»

«وما الغلط في ذلك؟»

«ما الغلط؟ أنت لا تحفلين بي، ولم تحفلي بي قط. أنت لا تفكرين إلا في جدك، كان ينبغي عليّ أن أدرك ذلك منذ زمن بعيد! كم أنا غبي! لا يهمك إن تصرف معي كمستبد إقطاعي! كل ما يهمك هو ألا أدمر حياته!»

جلست ليان وسوت ثوبها ثم قالت بلهجة حزينة: «أنا لست غافلة عن الأخطاء التي ارتكبها جدي! لقد أصبت بصدمة حينما علمت بما فعله بك وبوالدك، لكنني لا استطيع أن أكف عن حبه، إنه شخص فريد بالنسبة إليّ!»

أجابها كايل بصوت يائس: «هذه هي المشكلة. ربما أنا تغيرت يا ليان، لكنك لن تتغيري أبداً، ستظلين دائماً حفيدة الجد ديبوا.»

وقفت ليان وقالت وهي ترتجف: «من الأفضل أن أعود إلى المنزل.»

غادرا الحظيرة وهما صامتان، ثم سارا على طول الممر المظلم. تذكرت ليان أنها نسيت حقيبتها ومفتاحها في المنزل، فذهبت إليه كي تجلبهما وانتظرها كايل في الخارج، ثم قال لها وهي تفتح باب سيارتها: «لا أريد أن أراك ثانية يا ليان، فنحن نتخاصم كلما التقينا.»

أجفلت حينما سمعت تلك الكلمات اللاذعة فقالت له: «لم يطلب منك أحد أن تشتري هاي فالي.»

«ربما كانت هذه غلطة أخرى. لكنني اشتريت المزرعة فعلاً، وقد أصبح المنزل منزلي الآن. أشكرك لأنك كنت

مضيفتي هذه الليلة، لكن إبقي بعيدة عني من الآن فصاعداً. أنا انسان من لحم ودم، ومن الطبيعي أن اشعر بالرغبة نحوك. سوف اندم إن امضيت معك وقتاً ممتعاً، ولا أدري إلى أي مدى استطيع أن اتمالك نفسي.»

اغرورقت عيناها بالدموع، ومن حسن حظها أن الظلمة حالكة، فلم ير كايل دموعها. قالت له وهي تستقل سيارتها: «طابت ليلتك.»

ما لبث أن توارى في الظلمة فيما أدارت محرك السيارة.

الفصل السادس

تململت ليان في فراشها وأحست بالصراخ يختنق في حلقها وبالعرق يتصبّب من جسمها. استغرقت بضع ثوانٍ كي تدرك ان كابوساً راودها، كابوس حيّ رأت فيه جدها وهو يمسك قضيباً ويندفع نحو كايل وهي تحاول أن تصده.

ألقت رأسها على الوسادة وهي ترتجف. تذكّرت الكوابيس التي راودتها خلال الليالي التي تلت فقدانها لجنينها والتي أعقبت رحيل كايل عن هاي فالي، كوابيس تضاهي ذاك الذي استفاقت منه روعاً.

كانت الشمس ترسل أشعتها المشرقة عبر النافذة، فأدركت ليان ان النهار قد انتصف. لا بد من ان جدها جالس في الخارج، فهو غالباً لا ينام حتى هذه الساعة المتأخرة.

نهضت من فراشها على مهل، فأحست ببعض الألم، ثم رأت ثوبها الفيروزي ملقى على الكرسي المحاذي للنافذة. لم تعلقه أمس في الخزانة، بل رمته على الكرسي وكأنها لم تعد بحاجة إليه بعد انتهاء الحفلة.

اتجهت نحو الكرسي وأمسكت الثوب، ثم مررت عليه أصابعها، فذكّرتها لمسة الحرير بلمسة الندب الظاهرة على ظهر كايل، فما لبثت أن وضعته في أحد الأكياس وطرحته جانباً خلف أحذيتها في آخر الخزانة.

طال بها الوقت وهي تستحم، وما ان انتهت حتى ارتدت سروالاً وقميصاً وسرحت شعرها المبلل. لم تشأ أن تتبرج،

فذهبت إلى المطبخ وفتحت باب البرّاد، فأدركت عندئذٍ أنها ليست جائعة، وأنها لا ترغب إلا في بعض القهوة. حضّرت فنجانين من القهوة، ثم خرجت إلى المصطبة.

كان الجد ديبوا جالساً كعادته على كرسيه المصنوع من الخيزران، وكان الكلب نائماً عند قدميه، وصحيفة يوم الأحد مفروشة على حضنه، لكنه لم يكن يطالعها. كان يدخن غليونه وهو يسرح النظر في الأرض المقفرة المترامية خلف السياج، فلم ينتبه لوصول ليان.

كم كان يبدو نحيلاً! تكاد نفحة هواء أن تدفعه عن كرسيه! لقد سقط منذ ثلاث سنوات عن السلم، فأصيب بجروح في ظهره ورجليه، مما أعاق تحركه إعاقة دائمة. ثم ما لبث ان أصيب بعد مضي سنة واحدة بداء في رئتيه كاد ان يودي بحياته، فخافت عليه ليان خوفاً شديداً طوال أسابيع. إلا ان الجد ديبوا أبلى من مرضه، لكن الرجل الذي كان ينضح بالحيوية والنشاط غدا اليوم طيفاً هزيلاً.

كان من الصعب ان تصدق ليان بأن جدها كان يملك منذ سبع سنوات القوة الكافية لضرب كايل، لكنه ضربه فعلاً، وقد رأت الندب بأم العين، فلم تشك في صحة كلام كايل.

قالت لجدها بهدوء: «حضرت لك بعض القهوة.»

أدار العجوز رأسه، فتناثر الرماد على قميصه، وقال لليان: «صباح الخير يا صغيرتي.»

«صباح الخير يا جدي.»

وضعت ليان فنجانه إلى جانبه على الطاولة، ثم جلست بالقرب منه. ارتشفت قهوتها ثم أغمضت عينيها، فأدفأت الشمس وجهها.

قال لها جدها بعد برهة: «تأخرت في النوم.»

أجابته ليان من دون أن تفتح عينيها: «كنت تعبة.»

«لم أسمعك حينما عدت إلى البيت.»

«دخلت البيت على مهل. لم أشأ ان أوقظك من النوم.»

سألها: «متى عدت؟»

«كانت الساعة قد جاوزت الثانية ليلاً.»

«هل كانت الحفلة ممتعة؟»

«لا بأس.»

«لا بأس؟ هذا كل ما لديك قوله بعد المجهود الكبير الذي بذلته من أجل ذاك الرجل؟»

قالت له: «لقد استمتع الناس بوقتهم.»

«لا تكثرين الكلام هذا الصباح يا ليان.»

«ارجوك يا جدي، لا تطرح عليّ الكثير من الأسئلة.»

«توقعت أن تستيقظي باكراً وتثني على حفلة كايل آفيري عاطر الثناء.»

«لا يروقني التكلم على كايل هذا الصباح يا جدي.»

«أنا لا أرغب في إزعاجك، لكن بي بعض الفضول. هل أنت على ما يرام يا ليان؟»

فتحت ليان عينيها، فرأت جدها يحدق إليها، فقالت له: «لِمَ تسألني؟»

«تبدين شاحبة قليلاً وسيئة المزاج.»

«ربما يعود هذا إلى إطالتي السهر أمس.»

ما كان الجد ديبوا ليخدع، فقال لها: «قلت إن الناس استمتعوا بوقتهم. هل استمتعت أنت بوقتك يا ليان؟»

ترددت ليان بالإجابة عن سؤاله. ما قاله كايل أمس

جعلها تبدل رأيها بجدها، ففكرت وهي عائدة الليلة الماضية إلى البيت بأن علاقتهما لن تبقى على ما هي عليه الآن، حتى ان ليان ذهبت إلى التفكير بأن تتركه وتستأجر شقة في المدينة. لكن إذ نظرت إليه اليوم وإذ أدركت أن جدها أمسى بلا حول ولا قوة، وأنهما أصبحا وحيدين في هذا العالم، ينبغي عليهما ان يكافحا معاً، كادت ليان أن تجيبه الإجابة المطمئنة، فتقول له ان الحفلة كانت رائعة وإنها أمضت وقتاً مسلياً.

لكن كان ينبغي عليها ان تخبره بما حدث.

وضعت فنجان القهوة على الطاولة ثم قالت: «يجب ان نتحدث يا جدي.»

«عما نتحدث؟»

«عن كايل.»

«لم نتحدث إلا عنه خلال أسابيع.»

«أريد ان أعرف ماحصل في تلك الليلة التي طردته فيها من هاي فالي.»

ارتسمت على وجه الجد ديبوا ألوان مختلفة من الاضطراب: غضب وألم وخوف، فقال لها: «لقد حصل ذلك منذ زمن بعيد.»

«هناك أحداث لا تزول مع مرور الزمن يا جدي.»

«ماذا تحاولين إخباري؟»

«ما زالت الندب ظاهرة على ظهر كايل.»

أجفل الجد وقال: «ندب؟»

«لطالما ظننت أنه رحل عن هاي فالي بعد سقوطي في المطبخ، لكن قبل أن أفقد جنيني، لطالما ظننت أنه تخلف

عن تحمل مسؤولية حملي. ثم قلت لي إنك طلبت منه الرحيل، لكنك لم تقل لي كيف. كنت متأكدة من أنك أنذرته، ومن أنه رحل لأنك هددته بطريقة أو بأخرى.»

«ليان...»

«بمَ هددته؟»

«لقد ضربته.»

أحست ليان بالدوار حينما تذكرت الندب التي رأتها الليلة الماضية، ثم قالت: «كان ذلك أكثر من الضرب، كان ذلك جلداً.»

«لقد كان كايل يشتكي إليك، أليس كذلك؟»

«لم يخبرني إلا البارحة بما حصل. كان بوسعي ألا أصدقه، لكنني رأيت الندب في ظهره.»

«رأيت الندب؟ كيف يا ليان؟ لماذا؟ تباً لك! هذا ما كنت أخشاه منذ أن أتى إلى هنا. لقد قلت لك ان تحترسي من هذا الرجل، فأنا أعرف أنه لا ينوي سوى الشر! هل سيتكرر ما حصل بينك وبينه يا ليان؟ ماذا كنت تفعلين مع كايل آفيري حتى رأيته عاري الظهر؟»

كان الجد ديبوا يستشيط غضباً، وكانت ليان غاضبة أيضاً، فقالت له: «أنا في سن الرابعة والعشرين، وقد أصبحت امرأة راشدة، وما كنت أفعله مع كايل لا يعني سواي. لقد رأيته عاري الظهر، ولقد رأيت الندب. أردت ان أعرف مصدرها وسببها.»

«ليان، يا صغيرتي...»

كان الجد يسرح النظر في الحقول حينما قال بصوت هجره الغضب: «ربما أخطأت فعلاً، ربما ظلمت كايل، أنا

أعي ذلك الآن، لكن يجب ان تفهمي لمَ حصل ذلك. لقد بلغ مني الحزن كل مبلغ حينما توفي والداك وأدركت انني خسرت ابني الوحيد وفقدت المرأة الجميلة التي كنت أعتبرها ابنة لي. لكن كان عليّ ان أعوض تلك الخسارة معك أنت، وأن أستمر في العيش معك، أنا الأرمل الفظ وأنت الفتاة الصغيرة اليتيمة. لم يبق لك أهل سواي، فكان عليّ ان أربيك تربية صالحة، هل يمكنك ان تتخيلي ذلك؟ لم أكن ملماً بتربية البنات الصغيرات، فأنا لم أرزق بنتاً وزوجتي لم تنجب سوى صبيّ وحيد، لكنني عقدت العزم على ان أضحي بكل ما لدي في سبيلك، لقد منحتك حبي، كل حبي يا ليان.»

انقطع عن الكلام، فرأت ليان عينيه مغرورقتين بالدموع، فشعرت بالشفقة. ما فعله جدها قد فات، أمسكت بيده فأحست بأن عروقه النافرة قد لمست قلبها، فقالت له: «لا بأس يا جدي، لا تكمل كلامك...»

استدار نحوها وقال: «عليّ ان أكمل كلامي لأن صفحة العذاب هذه قد فتحت، وهي لن تطوى أبداً إلا إذا وضعنا النقاط على الحروف.»

قالت ليان بلطف: «أظن أنني أتفهم كلامك.»

«عليّ أن أتأكد من ذلك. لقد رأيتك تكبرين يا صغيرتي، وكنت أعلم أن هناك أشياء لا أستطيع أن أفعلها من أجلك ولا أن أخبرك بها. كنت تحتاجين إلى والدة ترعاك، ولم يكن لديك سواي. لقد كبرت وأمسيت أجمل وأجمل، وكنت أخشى ذلك، فقد أدركت أن الشبان سوف يلحقون بك عاجلاً أم آجلاً، ولم أكن أدري كيف أحذرك منهم، تأملت فقط ألا يلحق بك أذى.»

قالت بهدوء: «ثم جاء كايل...»

«كايل لم يأت، فقد كان يعيش في المزرعة، لكنه كان أكبر منك سناً، فلم يخطر ببالي بأنه سوف يغرم بك. ربما كان عليّ أن ألاحظ ذلك. لم يساورني القلق حتى حينما أدركت كم تمضين معه من الوقت. كان يعتني بحصانك ويدرّبك على ركوب الخيل، أشياء كهذه...»

«ثم اكتشفت انني حامل.»

«لن أنسى أبداً تلك الليلة، حينما جلست في غرفة الانتظار في المستشفى، أنتظر الطبيب كي يخبرني إن كنت قد أصبت بارتجاج في الدماغ. وإذ بالخبر المروّع حينما سمعت الطبيب يقول لي ان حفيدتي تنتظر مولوداً. أدركت حينئذٍ ان كايل هو والد الطفل، ولا أحد غيره، وقد أقرّيت لي بذلك. لقد وقع عليّ هذا الخبر وقوع الصاعقة، فغضبت غضباً شديداً. أردت ان أقتل كايل، فذهبت إلى المزرعة ورحت أبحث عنه. لم أقصد إيذاءه، ليتك تصدقينني، لكن الغضب أعمى بصيرتي وأفقدني صوابي. كان كايل مرتبكاً لدرجة أنه لم يحاول أن يدافع عن نفسه. ثم طردته وقلت لوالده ان يغادر المزرعة أيضاً.»

كانت ليان تصغي إلى القصة، وقد اعتمل في صدرها مزيج من المشاعر المتصارعة. تفهم واشمئزاز وحزن. تفهمت الدوافع التي حدت بجدها إلى التصرف تصرفاً عنيفاً كهذا، واشمأزت من فقدانه صوابه، وحزنت للألم الذي سببه لها ولكايل ولكل ما خسراه.

ثم سمعت جدها يقول لها بصوت خافت وحزين: «وها انك التقيت كايل آفيري ثانية، فلم تتمكني من مسامحة جدك على ما فعل.»

«لقد أتيت فعلاً رهيباً يا جدي. لا يمكنني أن أنكر ذلك، وإلا خففت من روع ما حدث، وهذا ليس عدلاً. هل علمت أن والد كايل توفي بعد أشهر على مغادرته المزرعة؟»

«أجل، وحزنت حزناً عميقاً. لقد كان جيم آفيري رجلاً طيباً.»

«يظن كايل أن والده لم يتمكن من العيش إلا في هاي فالي.»

قال جدها بصوت حزين جداً: «ليس بوسعي أن أصحح غلطتي.»

«هذا صحيح. أنا مسرورة لأننا تحادثنا، حتى ولو شق علينا الحديث. كان عليّ ان أسمع منك هذه القصة كما سبق لي أن سمعتها من كايل.»

«هلا سامحتني يا ليان؟»

«ليت ما حصل لم يحصل، لكنك جدي، فكيف يمكنني ألا أسامحك؟»

التمع بريق أمل في عينيه الحزينتين، وسألها: «هل تعنين ما تقولين؟»

«أنا أعلم أنك لم تفعل ذلك إلا لأنك تحبني.»

قال لها بصوت أجش: «إنها الحقيقة. لا أدري ماذا أقول سوى انني آسف. لم أحتمل أن يبقى كايل في هاي فالي، لكن ليتني لم ألحق به الأذى، أكثر من ذلك، ليتني لم ألحق الأذى بوالده.»

أما كايل، فهو على وشك ان يلحق الأذى بجدها وبطريقة لا يمكن تفاديها.

التزمت ليان الصمت وقد سرحت في أفكارها، فقال الجد

ديبوا: «لقد أمسيت ضعيفاً، وقد أصبح كايل هو القوي الآن. لا أدري كم يوماً بقي لي كي أعيش، لكن الحياة أنعمت عليّ بأمور كثيرة، أنعمت عليّ بك يا ليان ومنّت عليّ بالعيش قرب المزرعة التي لم تعد ملكي، فأشعر بأن هاي فالي لا تزال منزلي.»

«جدي...»

قاطعته ليان إذ أدركت أنه ينبغي عليها أن تخبر جدها بالمشروع التجاري المرتقب التنفيذ في الحقول الواقعة على الحدود الشرقية، إلا ان هذا الأخير تابع كلامه وكأنه لم يسمعها تناديه: «أتعلمين أنني أمضي ساعات في النظر إلى الأرض؟ أنا أقضي معظم وقتي هنا حينما تذهبين إلى عملك، أسرح النظر في السياج وفي الأرض المترامية خلفه. لن أسامح نفسي أبداً على القيام بهذا الاستثمار المتهور وعلى تبديد إرثك يا ليان، لكن سوف أدع نفسي أصدّق بأننا ما زلنا على صلة بهذه الأرض ما دمت أعيش في هذا البيت الصغير وما دمت قادراً على النظر إلى هذه الحقول.»

صاحت ليان بصوت مخنوق: «آه، يا جدي.»

«هل بامكانه تنفيذ المشروع يا تيد؟»

«أجل يا ليان.»

كانت ليان قد ذهبت إلى تيد لورانس بعدما حاولت ان تقابل مارتن سيمبسون المحامي، فقيل لها انه خارج البلد.

كان تيد يتكلم بجدية، فقالت له ليان: «لا بد من أن هناك وسيلة لردعه.»

«ليتنا نقع على تلك الوسيلة. لا، يا ليان، لقد بحثت في الموضوع بحثاً دقيقاً، فاتصلت بمحاميّ الخاص وطلبت

منه أن يقوم ببعض التحريات. قد يصعب عليّ شرح ما قاله لي، فأنا بالذات لست متأكداً من أنني فهمت كلامه حق الفهم، لكن بامكان كايل آفيري إعادة تأهيل هذه الحقول. لا شك في أنه ينبغي عليه إنجاز بعض المعاملات، لكن لن يشق عليه ذلك. هذا الرجل ليس غبياً يا ليان، لقد قلت لك ذلك الليلة الماضية ونحن في الحفلة. من الواضح أنه أتم بنفسه الاجراءات القانونية جميعها منذ وقت طويل.»

«أفهم من كلامك أنه ما باليد حيلة؟»

«إلا إذا قررت أن تلاحقيه قانونياً، لكن الدعوى التي ستقيمينها تتطلّب مصاريف باهظة وهي، لا شك، خاسرة. إني أظن أنه لا يسعك القيام بأي فعل يا ليان.»

عاد مارتن سيمبسون من السفر بعد عدة أيام، فأسدى إلى ليان النصيحة نفسها: «من حق كايل أن يبني مجمعاً تجارياً للمزارعين. ما هو رأي جدك بالمشروع؟»

قالت له ليان: «ليس على علم به.»

انحنى المحامي إلى الأمام وقد وضع يديه على مكتبه المصنوع من الخشب الفاخر، ثم قال: «أنت لا تنوين أن تكتمي عنه الخبر، أليس كذلك يا ليان؟»

«أنا أنوي أن أكتم عنه الخبر حتى أتأكد من أن الوسائل جميعها استنفدت.»

«ما من وسيلة تردع كايل آفيري عن بناء هذا المجمع.»

قالت ليان بقساوة: «لا أظن ذلك.»

كانت التحضيرات لعقد مؤتمر تجار الألبسة سارية على ما يرام، وكان مكتب ليان مكسواً بالأوراق على مختلف أنواعها. كتيّبات وجداول أعمال وصور، وكان درجها

مليئاً بالرسائل والبيانات الصحفية والمذكرات، وجرس الهاتف لا يعرف للسكوت سبيلاً، وآلة الفاكس لا تعرف للسكون طريقاً.

كان نائب مدير المصنع قد دعاها إلى غداء عمل، وقال لها إن لديها ميلاً فطرياً للعلاقات العامة. وأبدى لها إعجابه باختيارها المتحدثين الذين سيمثلون المصنع في المؤتمر، وبالحملة الدعائية التي نشرتها في الصحف والمجلات، وعرض عليها أن يرفع راتبها.

كان من الطبيعي أن تسرّ ليان بكل ما تتلقاه من ثناء، لكن ما إن غادرت المكتب واتجهت بسيارتها نحو البيت، حتى غاب عن ذهنها كلام الغداء. لم يكن بوسعها إلا أن تركز على موضوع واحد وهو كيفية ردع كايل عن إنجاز مشاريعه.

لم تشعر قط بالارتباك الذي يتملكها الآن. فهي لا تستطيع أن تلوم كايل على عدم مبالاته بإيذاء جدّها من جراء بناء مجمع تجاري للمزارعين لا يبعد عن بيت هذا الأخير قيد أنملة، وهي لا تستطيع أن تتخيل ما قد يحدث لجدها إن تم تنفيذ هذا المشروع. وإن حبها لكلا الرجلين لم يسهل عليها الأمر.

بعد أسبوع من البحث والتدقيق غير المجديين، إذ بفكرة تخطر على بالها وهي نائمة فجر ذات يوم أحد. فذهب بها الحماس إلى أن تنهض من فراشها وتنظر إلى الساعة، فرأت أنها جاوزت الثالثة ببضع دقائق، لا بد إذاً من أن تنتظر حتى يطلع الصباح.

سألها جدها بعد مضي بضع ساعات حينما أتت إلى

المصطبة وحقيبتها معلقة بكتفها ومفتاح سيارتها في يدها: «إلى أين أنت ذاهبة؟»

قالت له: «عليّ ان أقابل شخصاً ما.»

«من هو؟»

«أحد الأصدقاء.»

«متى ستعودين؟»

كان الجد قد لاحظ حماسها، فراح يحدق إليها.

«لا أدري، هذا يتوقف على نقاشنا. يوجد بعض الطعام في البراد. سخّنه إن تأخرت عن وقت الغداء.»

كان بإمكانها أن تذهب سيراً على الأقدام عبر الحقول، لكنها استقلت سيارتها حتى لا تثير فضول جدها.

ما لبثت ليان أن قطعت المسافة القصيرة التي تفصل بيتها عن هاي فالي. شعرت بالارتياح حين رأت السيارة الفضية جاثمة في الباحة. لا بد من أن كايل هنا، سوف تتحدث إليه قبل أن تفقد رباطة جأشها. تنفست تنفساً عميقاً، ثم ترجّلت من السيارة، وسارت نحو المدخل ودقت على الباب الخشبي الضخم.

ها هو كايل يفتح الباب ويقول ببطء: «هذه زيارة غير متوقعة.»

«لقد قلت... لقد قلت لي إنك لا تريد أن تراني مرة أخرى.»

«أذكر ذلك.»

«لا أدري إن كنت تقصد ما تقول.»

«قصدت ذلك آنذاك، بسبب الإحباط. كلانا كان غاضباً تلك الليلة.»

«إذاً، لم يزعجك مجيئي.»

«كلا، لكنني عجبت لرؤيتك.»

«أجل... حسناً...»

أحست في تلك اللحظة بجفاف في حلقها، إلا أنها تابعت قائلة: «يجب أن أتحدث إليك هل... هل بإمكاني الدخول؟»

«طبعاً.»

تبعته إلى المكتبة التي كانت تعتبرها ليان أفضل غرفة في المنزل، فقد بقيت رفوف الكتب التي صنعها أحد الحرفيين من الخشب الفاخر معلقة على الجدران، مع ان أثاث المنزل الأنيق قد بيع كله. وكان كايل قد ملأ تلك الرفوف بكتبه الخاصة، سوف يتسنى لليان أن تطالعها إن نجحت خطتها، وإلا... لكن يجب أن تنجح خطتها.

«لا أذكر إن قلت لك إنني أعجبت بالأثاث الذي اخترته لهذه الغرفة.»

«لقد قلت لي ذلك على أي حال، شكراً لك.»

«الستائر جميلة، فهي تعكس خيوطاً ذهبية، والسجادة العجمية رائعة، من أين ابتعتها؟»

«اشتريتها من أحد بائعي السجاد في كيب تاون. سبق لي أن أخبرتك بذلك.»

كان يتكلم بلهجة جافة، ثم تابع قائلاً: «ليست هذه المرة الأولى التي ترين فيها المكتبة يا ليان، لا أصدق أنك أتيت إلى هنا كي تشيدي باختياري الأثاث.»

«كلا...»

«لم أرك في حياتي وأنت على هذه الحال. لم لا تجلسين وتخبرينني ما الأمر؟»

لقد كان هو سبب إرباكها. التمع بريق الشر في عينيه،

والتوت شفتاه. كان شعره مبللاً، داكناً ولماعاً، ومجعداً عند العنق، فأيقنت ليان أن كايل كان يمارس السباحة وودت لبرهة لو تلمس شعره هذا.

قال لها بلهجة ساخرة: «حسناً يا ليان، ما الأمر؟ ليس من عادتك أن تترددي. ألن تقولي لي لِمَ جئت إلى هنا؟»

قالت له بسرعة: «أريد أن أتزوج منك.»

«حقاً!»

«أنت مندهش؟»

«ماذا تقصدين بهذا التصريح؟»

«هل تقبل الزواج مني يا كايل؟»

«ليس قبل أن أعرف ما هو سبب هذا الطلب الغريب.»

شبكت ليان يديها وراحت تحرك أصابعها بارتباك، ثم قالت: «سبق لك أن طلبت مني الطلب نفسه.»

«أذكر ذلك، وأذكر أيضاً أنك رفضته رفضاً قاطعاً أكثر من مرة.»

«أجل، لكنني أقبله الآن.»

كان حلقها جافاً، فشق عليها الكلام، إلا انها تابعت قائلة: «لِمَ تنظر إليّ هذه النظرة يا كايل؟»

«أتساءل لماذا غيّرت رأيك. هل ستقولين لي إنك متيمة بي حتى الجنون؟»

«طبعاً لا...»

انقطعت ليان عن الكلام. كان العرق يتصبب من وجهها وعنقها. لم تذكر أنها شعرت يوماً بهذا الارتباك، فقد بدت لها الفكرة بسيطة وهي قابعة في ظلمة غرفتها، لكنها أدركت الآن كم كانت غبية! لقد كان كايل رجلاً حاذقاً، فهو لن يفهم طلبها فهماً سطحياً.

قالت له بصوت أجش: «لقد طلبت مني الزواج قبل بضعة أسابيع.»

«هذا صحيح.»

«لِمَ لا تريد أن تتزوج مني الآن؟»

«هل يجب أن أذكرك مرة أخرى بأنك رفضت طلبي وقلت انك لست مغرمة بي. لذا، فأنا أسألك الآن لماذا رغبت فجأة في أن تصبحي زوجتي؟»

«هل من المفترض أن يكون هناك سبب؟»

«طبعاً! ماذا تنوين يا ليان؟»

فقالت له بصعوبة: «لا أرى أي مانع يثنينا عن تحقيق هذا الطلب، فقد أعطيتني رأيك بالموضوع.»

«أنا لم أعطك رأيي قط.»

كانا يجلسان بالقرب من بعضهما، فمد يده وقبض على معصمها، وقال: «ماذا تنوين يا ليان؟ أريد أن أعرف ماذا تنوين؟»

لكن ليان التزمت الصمت، فصاح بها آمراً: «تكلّمي!»

قالت بارتباك: «جدي...»

«آه...»

لم يبدُ كايل مندهشاً على الإطلاق.

«سوف تدمر حياته إن بنيت ذلك المجمع التجاري يا كايل.»

«تظنين أنني سوف أعرض عن تنفيذ مشاريعي إن تزوجتك.»

«آمل ذلك.»

كان يحكم القبض على معصمها بأصابعه القاسية.

أرغمت ليان نفسها على النظر إلى وجهه، فرأت امارات القساوة ترتسم عليه أيضاً. لقد أساءت التقدير! كانت تظن أن غرام كايل بها يضاهي غرامها به، لكن مشاعر كايل تغيّرت مع مرور الزمن. لقد كانت فكرتها تافهة!

همست قائلة: «لقد كنت غبية.»

«فعلاً!»

سحبت معصمها من يده ووقفت. أدارت وجهها كي لا يرى الدموع في عينيها.

ما إن بلغت الباب حتى أوقفها صوته قائلاً: «إلى أين أنت ذاهبة؟»

«إلى البيت.»

«هل تستسلمين دائماً بهذه السهولة حينما تبغين شيئاً؟»

فقالت: «ما هو الداعي الذي يحملني على البقاء؟»

«اجلسي. نحن لم ننهِ حديثنا بعد.»

جذبتها نبرة صوته، فقالت له: «هل أنت متأكد من ذلك؟»

«فلنقل إنني مهتم بذلك. ما الذي سأحققه إن قبلت طلبك يا ليان؟»

«ظننت أن هذا واضح.»

«أريد أن أسمعه منك أنت.»

كم كان كايل واثقاً من نفسه! كانت ليان تعلم أن كلامها لن يثير دهشته. إن أصرّ على أن تبوح له بخطتها، فهو لأنه يستمتع بتعذيبها، فقالت ببطء: «لطالما أردت أن تنتقم من جدي! هذا هو السبب الذي حملك على شراء هاي فالي، وقد قلت لي بنفسك إن ذلك جزء من خطتك.»

«أكملي.»

«وقد طلبت مني الزواج كي تنجز انتقامك.»

قال لها بلهجة لاذعة: «وقد رسمت خطتك على هذا الأساس.»

«لم أشك في أمرك قط يا كايل. لقد كنت دائماً تسعى وراء الانتقام. إن تزوجتني، حصلت على كل ما تبغيه، فلن تعود بحاجة إلى تنفيذ مشروع تجاري قد لا يكون مربحاً. صدقني يا كايل، هذا هو الحل الوحيد الأنسب.»

«هذا صحيح.»

«كلانا سوف يحقق مراده إن تزوجنا.»

نظر إليها نظرة غامضة، فاستحالت عليها قراءة أفكاره، ثم قال بعد برهة طويلة: «قد تكونين على حق.»

تنفست تنفساً متقطعاً ثم قالت: «هل هذا يعني أنك قبلت طلبي؟»

تركها تنتظر لبرهة بدت لها أزلية، ثم قال لها وهو شبه مبتسم: «أجل.»

حدّقت ليان إلى الرجل الذي أغرمت به قبل سبع سنوات والذي ما زالت مغرمة به حتى اليوم، فرأت شفتيه الملتويتين ووجهه المنبسط. إن لحظة كهذه من شأنها أن تفعم قلبها سعادة ما بعدها سعادة، لكن ليان لم تشعر سوى ببؤس عميق، فقالت له قبل أن يرن جرس الهاتف:

«هناك شيء واحد فقط...»

غادر كايل المكتبة ليرد على الاتصال الذي تلقاه لتوه. كان الهاتف موضوعاً في المدخل، فتمكنت ليان من سماع صوت كايل حتى لو لم يسعها تفهم الكلمات. لقد تلقى كايل هذا الاتصال في وقت غير مناسب، فقاطعها حينما كانت على وشك ان تقول له ان الزواج لا يمكن أن يتم إلا وفق شكل محدد، أي أنهما لن يعيشا معاً كزوج وزوجة.

أدارت رأسها حينما سمعته يضع السماعة ويتجه نحو المكتبة. وقالت: «كايل...»

قال لها: «لقد جدّ عليّ عمل طارىء. أنا آسف، لكن يجب فوراً أن أحرر مستنداً طارئاً.»

«لكن يا كايل...»

«يجب أن أرسله بواسطة آلة الفاكس بعد ساعة من الآن، سوف نكمل كلامنا مرة أخرى يا ليان.»

وقفت ليان وقد بدا الاستياء على وجهها. كانت تشعر بأن الأمور لا تزال عالقة بينهما. أحست بأن كايل كان على عجلة من أمره، مع ذلك، فهي لم تقوَ على منع نفسها من طرح سؤال عليه: «أريد ان أعرف يا كايل إن كنا مخطوبين؟»

نظر إليها نظرة جافة وقال: «طبعاً.»

ثم انحنى وقبل يدها قبلة خفيفة، قبلة مجرّدة من أي عاطفة، وخالية من أي شعور بالحب، قبلة شخص يعقد صفقة رابحة، لا أكثر.

قضت ليان باقي اليوم مضطربة. ما انفكت ترى جدّها ينظر إليها نظرة فضول، وقد بدا الانزعاج على وجهه. من الواضح أنه علم بأن شيئاً ما قد حصل، لكن لم يكن بوسع ليان أن تخبره بما حدث قبل أن تتأكد من أن كايل كان صادقاً بالنسبة إلى موضوع زواجهما.

كانا يجلسان معاً على المصطبة عند غروب الشمس. كانت الجبال النائية تبدو وكأنها كتلة متعالية في السماء وغير جلية للعين، وكان الوادي مدثراً بالعتمة التي خيمت على الأرض قبل حلول الظلام. وحدها الحقول المترامية

خلف السياج كانت لا تزال تودع أشعة الشمس الهاجرة.

لم يتناه إلى مسمع ليان هدير السيارة التي سلكت الطريق الرملية ثم توقفت قرب البيت الصغير، فقد كانت تسرّح النظر في تلك الحقول وتتساءل ان كان بوسعها أن تقيها شر الآلة وشر الإنسان. ثم ما لبث أن قال لها جدها: «أظن ان كايل قادم إلى هنا.»

سرعان ما ظهر كايل على المصطبة، فانتصبت ليان وكادت تتعثر. لقد حدّثها شعور بأنه قد يأتي، فراحت تردد في ذهنها الكلمات التي ستقولها له، لكن تلك الكلمات غدرت بليان وفرّت منها، فأخذت تبحث عنها من دون جدوى، لذا، كان كايل هو الذي استهل الحديث قائلاً: «هل أطلعت جدك على أخبارنا؟»

سأله الجد ديبوا بسرعة قبل أن تتمكن ليان من الكلام: «أي أخبار؟»

«جدي...»

«أي أخبار؟»

«أنت لا تعرف إذاً يا سيد ديبوا. من الواضح ان ليان كانت تنتظرني كي نزف إليك الخبر معاً. هذا لطف منها.»

أجابه العجوز بفظاظة: «إن كان لديك كلام تقوله يا سيد آفيري، فقله من دون مقدمات.»

جذب كايل ليان إليه ووضع ذراعه حول كتفيها ثم قال: «أنا وحفيدتك مخطوبان وسوف نتزوج قريباً.»

سرت ارتعاشة ظاهرة في جسم العجوز، فبدا نحيلاً أكثر من العادة، ثم بذل جهداً كي يحافظ على رباطة جأشه وقال: «هل هذا صحيح؟»

لم ينظر إلى كايل، بل كانت عيناه مسمرتين على ليان، فقالت بهدوء: «أجل.»

رفعت ليان ذراع كايل واتجهت نحو جدها، كانت على وشك أن تكمل كلامها حينما انتصب العجوز رافعاً رأسه، ثم غادر المصطبة ودخل البيت متجاهلاً حزن ليان.

ما إن أقفل الباب حتى سألت كايل: «هل كان يجب أن تفعل هذا؟»

هز كايل بكتفيه وقال: «هل يجب أن أذكرك بأنك أنت من طلبت مني الزواج هذا الصباح؟»

«لست بحاجة إلى التذكير، فما زلت أشعر بالإذلال، لكن لا يجدر بك أن تقذف له الخبر قذفاً!»

«كان ينبغي عليه أن يعلم بذلك.»

«كنت سأخبره بنفسي وفي الوقت المناسب.»

«هل كنت أخبرته باتفاقنا أيضاً؟»

«كلا.»

«لا بد من أنه سمع عن المشاريع التي أنوي تنفيذها في تلك الحقول.»

«كلا، لم يسمع عنها. نحن نعيش حياة هادئة هنا، قلما يمر أحد ببيتنا، فلا أظن أن أحداً أخبره بالأمر.»

سألها كايل مستفهماً: «أنت لم تخبريه بشيء، أليس كذلك؟»

«ارتأيت أن أنتظر حتى...»

«حتى تتأكدي من أن خطتك قد نجحت.»

«لم تخطر تلك الفكرة على بالي إلا ليلاً.» رفعت ليان رأسها وتابعت قائلة: «لقد سررت بردة فعل جدي يا كايل، أليس كذلك؟ لن تشك أدنى شك في نجاح انتقامك.»

التزم كايل الصمت، فقالت بعد برهة وجيزة: «كنت على وشك أن أقول لك شيئاً حينما رن جرس الهاتف فانشغلت كل ذلك الإنشغال.»

«ماذا تودين أن تقولي لي؟»

«أظنه أمراً واضحاً.»

«قولي ما لديك من كلام يا ليان.»

«سوف يكون زواجنا زواجاً صورياً.»

«ماذا تعنين؟»

«لن نعيش معاً كزوج وزوجة.»

«دعيني أوضح الأمور يا ليان. تأتين إلى منزلي وتطلبين مني الزواج، ثم تضعين شروطك الخاصة كي يتم تنفيذ اتفاقنا؟»

عضت على شفتها وقالت: «أنا متأكدة من أنك ستتفهمني.» وتابعت وهي تشعر بالاختناق: «يجب أن يكون الزوجان متحابان كي يعيشا حياة زوجية طبيعية.»

ضحك كايل وقال بصوت أجش: «منذ متى كان ذلك واقعاً؟»

قالت بإصرار: «يجب أن يكون واقعاً معي.»

كانت ليان متأكدة من أن كايل سوف يناقشها بهذا الموضوع بالذات، لكنه ما لبث ان غيّر الحديث فجأة وبعد فترة صمت ثقيل سألها: «متى تودين أن نتزوج؟»

فوجئت بسؤاله فقالت: «متى تشاء.»

«سوف تحتاجين لبعض الوقت كي تتحضري.»

أكدت له قائلة: «لن أحتاج إلى وقت طويل إن تزوجنا زواجاً بسيطاً.»

«لن يكون زواجنا بسيطاً، على العكس تماماً، أريد أن أراك وأنت ترتدين ثوباً أبيض طويلاً، وتغطين وجهك بخمار متدلٍ وتمسكين باقة كبيرة من الورد، وأريد أن أنظم حفلة زفاف ضخمة في حدائق هاي فالي.»

اعترضته ليان قائلة: «لا داعي إلى ذلك.»

«هذا بالنسبة إليك، ولكن ليس بالنسبة إلي.»

«وهل هذا جزء من انتقامك أيضاً؟»

قال لها بلهجة الآمر: «سيتم زواجنا على هذا الشكل. سوف أصطحبك غداً بعد أن تنهي عملك كي نختار خاتماً.»

«تقصد خاتم الزواج.»

«سوف تحصلين عليه لاحقاً، لكننا سنشتري غداً خاتم الألماس.»

الفصل السابع

«هل هذا ما تبغينه فعلاً يا ليان؟»

كانت ليان واقفة بالقرب من طاولة المطبخ، تحضر طعام العشاء، وكانت قد حضرت في اليوم السابق حساء من الخضار، فوضعت القدر على النار كي تسخنها، وأخذت تقطع الخبز إلى شرائح صغيرة. أجابت جدها من دون أن تستدير: «طبعاً يا جدي، وإلا لما كنت مخطوبة الآن. لماذا تطرح عليّ هذا السؤال؟»

«أنت وكايل آفيري. إنها صدمة شديدة بالنسبة إليّ.»

«كان ينبغي عليك أن تتوقع أن ذلك قد يحصل بيننا.»

«لقد كنت أخشى ذلك منذ اللحظة التي عاد فيها هذا الرجل إلى هنا.»

«آمل ألا تتكلم هكذا يا جدي! هذا الذي تدعوه الرجل سيصبح زوجي وأنت عائلتي الوحيدة يا جدي، أريدك ان تتقبله، هذا مهم جداً بالنسبة إليّ.»

«سأحاول، فعلاً، سأحاول فقط من أجلك أنت. لكنني ألاحظ أنك لست مرتاحة للأمر.»

«هذا كلام تافه يا جدي!»

«هل أنت سعيدة يا ليان؟»

«يا إلهي! ما هذا السؤال الذي تطرحه على فتاة على وشك الزواج؟»

«أنا أذكر الليلة التي أعلن فيها والداك خطبتهما، كانت فرحتهما بلا حدود. ليست كهذه الحال بالنسبة إليك يا صغيرتي.»

«كنت تتذمر من أنني أبدو رائعة ليلة أقام كايل الحفلة في هاي فالي.»

«أذكر ذلك، لكنك تغيرت مذاك حتى أني كدت أظنك بائسة كل البؤس.»

أرغمت نفسها على الابتسام وهي تسكب الحساء في طبقين، ثم قالت له: «أظن أنك تخيلت ذلك يا جدي.»

«ربما.» ثم تابع قائلاً وهو يجلس على الكرسي بالقرب منها: «قولي لي كلمة واحدة يا ليان. هل تحبينه؟»

«من كل قلبي.»

كانت ليان تنظر بإعجاب إلى الخاتم الذي اصر كايل على أن تضعه حول إصبعها، فقال لها بنبرة ضاحكة: «ألا يعجبك؟»

«إنه رائع!»

«إذاً، ليس هناك مشكلة.»

نظرت إلى كايل ومن ثم إلى الخاتم. إنه أجمل ما رأته عينها من مصاغ. فهو خاتم مرصع بحجر كبير من الألماس وحجارة صغيرة من الزمرد. فتمتمت قائلة: «إنه باهظ الثمن.»

«لا تفكري بالثمن يا ليان.»

«لا يمكنني أن اقبله يا كايل.»

«أريدك أن تأخذيه إن أعجبك. ومن الواضح أنه أعجبك.»

شعرت البائعة بأن كايل رجل ثري، لا يحفل بالمال، فقدمت إليهما خواتم غالية الثمن. حينما قدمت إليها العلبة المخملية التي صفت فيها الخواتم، قدمت إليها البائعة علبة ثانية ثم ثالثة، من دون أن تظهر أنها لاحظت ارتباك ليان حينما تقع عينها على الوريقة التي كتب عليها السعر.

كان مدير المبيعات قد طرح على البائعة سؤالاً، فدخلت

إليه كي تجيبه، فبقي كايل وليان لوحدهما خلال بعض الوقت، فقالت له ليان بصوت منخفض: «كنت قد سررت لو اخترنا خاتماً بسيطاً من الذهب، لكن إن كان لا بد من اختيار خاتم خطبة، فلننتق خاتماً أصغر من هذا.»

«كلا.»

«إنه لا يناسبني يا كايل.»

«يبدو رائعاً في إصبعك.»

ما لبثت البائعة أن عادت إليهما فسألتهما: «هل من خواتم أخرى تودان رؤيتها؟»

«شكراً، لكن أظن أننا اتخذنا قرارنا. أنا وخطيبتي أعجبنا بهذا الخاتم. أليس كذلك يا حبيبتي؟»

هزت ليان رأسها وسحبت الخاتم من اصبعها وناولتها إياه كي تضعه في علبة خاصة.

خطيبتي... حبيبتي... كم كان يسهل على كايل التفوه بهاتين الكلمتين، لا سيما بكلمة حبيبتي التي لن يتفوه بها إلا أمام الناس كي يذكرها بالتمثيلية التي يؤديان فيها دور الزوج والزوجة. لن يدرك كايل أبداً كم كانت ليان تتحرق شوقاً إلى سماعه ينطق بتلك الكلمات العذبة وإذ بعينيها تغرورقان بالدموع. كان كايل يدفع ثمن الخاتم، فسارت ليان نحو واجهة المتجر وتظاهرت بأنها تحدق إلى مجموعة الأساور المعروضة هناك، وحاولت أن تستعيد رباطة جأشها.

دنا منها كايل وسألها: «هل اعجبك شيء آخر يا حبيبتي؟»

فلم تتمكن إلا من هز رأسها نافية، وقد تكلفت الابتسام.

أمسك بيدها وهما خارجان من المتجر. فقال لها وهو يفتح الباب: «حان وقت العشاء.»

«لا تقل لي إننا سنتناول العشاء معاً؟»

«طبعاً.»

«ظننت أنك ستوصلني إلى البيت.»

«سأوصلك بعد أن نحتفل بخطوبتنا.»

«تقصد باتفاقنا.»

فرفع كايل حاجبيه وقال: «إن شئت أن تسميه كذلك.»

«كلانا يعرف أنه اتفاق ولا أظنه مناسبة يجدر الاحتفال بها. إلا إن أردت الاستمتاع بانتقامك.»

ابتسم لها وقال: «الاستمتاع... تعجبني هذه الكلمة، أرى أنه من المستحسن أن نستمتع به معاً.»

لم تساور ليان الدهشة حينما أوقف كايل سيارته خارج المطعم الذي تناولا فيه الغداء أول مرة، وحينما اقتيدا مرة أخرى إلى أفضل طاولة. عندئذ، سحب كايل العلبة المخملية الصغيرة من جيبه وقال: «أعطني يدك.»

«كلا يا كايل، ليس هنا.»

«اعطني إياها.»

كانت ليان ترتجف حينما رفعت يدها من حضنها ووضعتها على الطاولة.

كان كايل يحدق إليها فيما أمسك يدها برقة، ثم وضع الخاتم حول الاصبع الرابع. ألقت ليان يدها على غطاء الطاولة الأبيض لبرهة طويلة من دون أن تأتي حركة. كانت عيناها شاخصتين، كأنما سحرهما لمعان الألماس، ثم ما لبثت أن سحبت يدها ووضعتها تحت الغطاء، فضحك كايل وقال لها: «سوف يألفه نظرك تدريجياً.»

«لست متأكدة من ذلك.»

«لا داعي إلى أن نتجادل حول هذه النقطة. فلنكن سعيدين معاً.»

نظرت إليه وقالت بنبرة غاضبة: «أنت تستمتع بإذلالي.»

«أتظنين أنني أذلك؟»

«ماذا أظن حينما تدعوني يا حبيبتي؟ وتصر على أن تهديني أجمل خاتم يباع في المتجر؟»

«أظن أن هذا تصرف طبيعي يتصرفه رجل يخطب فتاة.»

«ليس حينما يخطب فتاة يكرهها. آه يا كايل. إنك ممثل بارع. يجب أن أقر بذلك. من يرك تضع الخاتم حول اصبعي لا يصدق أنك تؤدي دوراً.»

«هل أنا فعلاً أمثل دوراً؟»

«أنت تعرف ذلك. إنها لمهزلة أن نتظاهر بأننا سعيدان، فيما ندرك أننا لسنا كذلك.»

قال بهدوء: «بوسعنا أن نكون سعيدين.»

قالت ليان بصوت حزين: «ليتنا نكون كذلك.»

«هذا ليس أمراً مستحيلاً يا ليان.»

ثم قالت بصوت ينم عن يأس وملل: «كلانا يعرف سبب اقدامنا على هذا الزواج. أنت تريد الانتقام وأنا أدعك تتمم انتقامك. زواجنا ليس سوى خدعة، لذا أنا اشعر بارتباك وأنا اضع هذا الخاتم في اصبعي.»

رفعت يدها ونظرت إلى الخاتم وقالت: «اخالني لن اضعه طويلاً...»

«تنذرين بالطلاق قبل أن ندخل القفص الذهبي؟»

أجابته قائلة: «أنا واقعية، ليس إلا.»

ونظرت إليه نظرة حزينة، ثم تابعت قائلة: «نحن لم نحدد مدة زواجنا.»

سألها كايل: «هل هذا شرط جديد؟»

«كلا، ولكن نحن لم ننظر في هذا الموضوع. زواجنا، لا شك، لن يكون زواجاً دائماً لا ينتهي إلا حينما يفرقنا الموت. أظن أننا سنعيش معاً إلى أن تتثبت من أنك أتممت انتقامك.»

سألها كايل: «متى أتثبت من ذلك؟»

«هذه مسألة تعنيك أنت، أليس كذلك؟»

«طبعاً.»

إذ به يضحك وينظر إليها بعينين ملتمعتين.

«ألم تسمع ما قلته لك؟»

«سمعت كل كلمة تفوهت بها، لكنني ما زلت أرغب في أن أدعوك خطيبتي، أليس كذلك؟ فلنستمتع بوقتنا ما دمنا معاً يا ليان، حتى ولو لمدة وجيزة.»

لقد استحالت أمنيتها كلمات تفوه بها كايل.

لقد مضت أيام عديدة على خطبتهما، وبالرغم من الظروف التي جمعت بينهما، كانت ليان متحمسة للعودة إلى هاي فالي، وللعيش في المزرعة بصفتها زوجة كايل. أما جدها، فقد تقبل فكرة الزواج كواقع لا مفر منه، فأعرض عن قول «هذا الرجل» حينما يتكلم على كايل.

كان باب البيت مفتوحاً، فدخلته ليان. لا بد من أن كايل سمعها وهي قادمة فناداها قائلاً: «ليان.»

كان البيت عابقاً برائحة القهوة، فاتجهت ليان نحو المطبخ وضحكت حينما رأت كايل يحمل فنجانه ويجلس إلى الطاولة، وقد فرش أمامه صحيفة اليوم السابق، فدعاها قائلاً: «أسكبي لنفسك بعض القهوة، إنها لذيذة. ألا تحبين القهوة الثقيلة؟»

«أحبها أكثر وأكثر حينما تكون ثقيلة.»

«غريب كم لدينا خصالاً نجهلها عند بعضنا البعض.»

«لم نتحدث عن مواضيع كثيرة منذ سبع سنوات.»

أجابها بابتهاج: «لدينا الآن الوقت كله كي نتحدث عنها.»

سكبت لنفسها بعض القهوة ثم جلست بالقرب من كايل. لقد كانت قهوتها أثقل مما توقعت، فراحت ترتشفها على مهل، وتتلذذ بنكهة البن البرازيلي الفاخر وبرائحته.

رفعت ناظريها، فرأت كايل يحدق إليها، فسألته: «بم تفكر؟»

«أفكر فيك.»

«فيّ أنا؟»

«هل هذا أمر غريب؟ إننا مخطوبان يا ليان.»

«كايل.»

تابع كلامه وكأنه لم يسمع احتجاجها: «كنت أحدق إليك وأقول في نفسي كم أنت جميلة، فوجنتاك محمرتان بعدما قمت بهذه النزهة، ولا بد من أن الهواء لعب بشعرك، فرحت أتخيل كم سيكون جميلاً أن أجلس قربك إلى طاولة الفطور يوماً بعد يوم حينما نتزوج.»

أزكت تلك الكلمات في قلب ليان نار الشوق إلى تحقيق ما تخيله كايل، فأخذت تنظر إليه، ثم قالت له بمرح: «آن الأوان كي نباشر تعليق اللوحات.»

أخذت فنجانه وفنجانها وغسلتهما، ثم لحقت به إلى خارج المطبخ.

لم تكن على علم بأن كايل كان من أحد أكبر هواة الفن الحديث، فكانت تلك الهواية ميزة جديدة تكتشفها فيه. راحت ليان تنظر إلي مجموعة لوحاته باهتمام كبير.

أمضيا ساعتين وهما يعملان معاً، كانا يتحادثان

ويضحكان ويمزحان، وكأن الهوة التي خلفتها السنوات الغابرة قد زالت بينهما، وكأن فراقهما القسري لم يحدث قط، وكأن كلمات السخط التي تفوها بها في الآونة الأخيرة لم تخرج من شفاههما قط.

ما إن توقفا عن العمل كي يرتشفا القهوة ثانية حتى قرع جرس الباب، فسألته ليان: «هل تنتظر أحداً؟»

«ليس على حد علمي. أتظنين أن جدك آت لزيارتنا؟»

قالت ليان فيما اتجه كايل نحو الباب: «لا أظن ذلك.»

عاد إليها بعد دقيقة وبرفقته امرأة شابة ممشوقة القد، سوداء الشعر، جميلة، فصاحت ليان مندهشة: «إلزبت باربر! ظننتك مسافرة.»

«كنت مسافرة، لكنني عدت البارحة وسمعت بخبر خطبتكما.»

قبلت إلزبت ليان وكايل، ثم قالت: «يا للخبر السعيد!»

قالت ليان بصوت منخفض: «حقاً؟»

ثم سألها كايل: «هل ترغبين ببعض القهوة يا إلزبت؟ لقد كنا نعلق اللوحات منذ الصباح، وقد استرحنا للتو.»

«أجل، أرغب ببعض القهوة.»

كان صوت إلزبت خافتاً فيه بحة لا تذكرها ليان. أجالت إلزبت طرفها ثم قالت: «هذا المطبخ يعيد إلى ذهني ذكريات كثيرة. لقد كنا صديقتين حميمتين يا ليان حينما كنا نذهب إلى المدرسة، أليس كذلك؟ غالباً ما كنت أزور هاي فالي، هل تذكر ذلك يا كايل؟»

ابتسم وقال: «أنكر فتاة صغيرة طويلة القد لا تبرح الاسطبل.»

«كانت تلك أياماً جميلة، ما إن سمعت بخبر خطبتكما حتى

أتيت إلى هنا. ليان دييوا وكايل آفيري، زوجان رائعان. لا بد من أن القدر جمعكما ثانية.»

فقال كايل وهو ينظر إلى ليان نظرة جافة: «القدر؟»

«أجل، طبعاً! أنا أؤمن بالقدر، ألا تؤمنان به أيضاً؟ كنتما تعيشان معاً في هاي فالي، فأغرمتما ببعضكما البعض، إنها قصة كالقصص الخرافية، أليس كذلك؟»

نظر كايل إلى ليان. لم يجب أحد منهما إلزبت، لكن هذه الأخيرة بدت وكأنها لم تلاحظ صمتهما، فتابعت قائلة: «آمل أن ترزقا طفلاً في القريب العاجل، هذه المرة.» فقاطعتها ليان وقالت لها باضطراب: «إنني أتحرق شوقاً إلى سماع أخبار سفرك يا إلزبت.»

لكن إلزبت لم تكن لتسهو عن كلامها، فتابعت قائلة وهي لا تزال تبتسم تلك الابتسامة المشرقة: «سوف تجري الأمور بينكما على ما يرام هذه المرة، أعني أنكما ستتزوجان ولن تتعرضا إلى أي ضغط، سوف يسعك الاعتناء بنفسك يا ليان، فلن تتعرضي إلى أي حادث تافه، ولن تفقدي طفلاً آخر.»

سألها كايل: «عذراً؟»

رمقته ليان بنظرة يائسة، فرأت أن الدهشة تولته، أما إلزبت فأردفت: «كان من المحزن أن تأخذ الأمور هذا المنحى السيىء، فتجهض ليان وتفقد طفلكما، لكنني متأكدة من أن ذلك لن يحصل هذه المرة.»

ألقت إلزبت نظرة على ساعتها ثم وضعت فنجانها على الطاولة. لم تظهر أنها لاحظت الصمت الثقيل الذي خلفه وقع كلماتها، ولكن كيف لها أن تفعل ذلك؟ ثم صاحت قائلة: «تباً لي! لقد غدرني الوقت! لقد تأخرت عن موعدي أتيت إلى هنا فقط كي أهنئكما وأعبر لكما عن سعادتي.»

قبلت ليان وشدت على يد كايل وهي تصافحه، ثم قالت: «أرجوكما ألا تظنا أنني غير لبقة لأنني سأرحل قبل أن يبرد فنجاني. لا داعي إلى أن ترافقني إلى السيارة يا كايل، بإمكاني أن اتدبر أموري، لكن إن اصريت على ذلك... حسناً، إلى اللقاء يا ليان، سوف نتناول الغداء معاً ذات يوم، لدينا كلام كثير نقوله لبعضنا البعض.»

تناهى إلى مسمع ليان عبر النافذة المفتوحة هدير السيارة وهي تنطلق. وشعرت بضعف في رجليها فكادت تسقط أرضاً، لذا جلست على أقرب كرسي.

رفعت ناظريها حينما دخل كايل الغرفة وهو شاحب الوجه شحوباً مخيفاً، فسألها: «ماذا إذاً؟»

«كايل.»

«هل كانت تقول الحقيقة؟»

«إلزبت كانت دائماً مسببة للمشاكل، أنا أذكر.»

«هل كانت تقول الحقيقة؟»

همست ليان: «أجل.»

وقف كايل على بعد خطوات من كرسيها فقال لها وقد اكفهرت سحنته: «هل رزقنا طفلاً يا ليان؟»

«ليس تماماً.»

«ليس تماماً؟ ماذا تقصدين بكلامك هذا؟ هل رزقنا طفلاً يا ليان؟ هل أنا أب أم لا؟»

كم كان يبدو مخيفاً! أمسكت بطرفي كرسيها وتمتمت: «كايل.»

أمرها بغضب: «هيا تكلمي!»

«إنك تخيفني يا كايل، إجلس، أرجوك.»

«لا تقولي لي ماذا أفعل يا ليان، تكلمي!»

«سوف أتكلم، لكن من الصعب أن أتكلم وأنت واقف هكذا. هلا جلست يا كايل؟ أرجوك.»

رمى بنفسه على الكرسي وقال بنبرة مهددة: «هيا، تكلمي الآن، ولا تكتمي عني خبراً واحداً.»

قالت ليان بهدوء: «ما قالته صحيح، لقد كنت حاملاً.»

«قبل سبع سنوات؟»

«أجل.»

«كان الطفل طفلي؟»

أومأت ليان برأسها، فسألها مجدداً: «ماذا جرى للطفل؟ أين هو؟ يجب أن أعلم بكل ما حدث، ألا تفهمين يا ليان؟»

«إنني أفهمك. لقد تعرضت إلى حادث... سقطت في المطبخ حينما زلت قدمي على بقعة زيت، فنقلت إلى المستشفى وما لبثت أن أجهضت بعد بضعة أيام وفقدت الطفل.»

وقعت عليه تلك الكلمات وقوع الصاعقة، فغام بصره وقال: «يشق عليّ استيعاب ما تقولينه. لم يخطر على بالي أنك كنت حاملاً. لماذا لم يخبرني أحد بذلك؟ كنت تزوجتك لو علمت بالأمر.»

«لا جدوى من ذلك، كنت قد فقدت الطفل يا كايل.»

«ربما لم تفقديه، ربما لم تقعي أرضاً، ربما كانت الظروف مختلفة لو كنت تعيشين معي أنا، وليس في منزل جدك.»

«لقد فات الأوان للتكهن.»

«ربما، ولكن لماذا لم تخبريني يا ليان؟ كنت تريننني يوماً بعد يوم، لِمَ أبقيت خبر حملك سراً؟»

«كنت قد رحلت حينما علمت أنني حامل.»

كانت ليان تحاول جاهدة أن تكتم دموعها، فقال لها: «هيا، أكملي كلامك.»

«لم يخطر على بالي أنني حامل، كنت في السابعة عشرة من عمري، وأظن أنني كنت بريئة كل البراءة، قد يصعب عليك تصديق كلامي الآن، لكنها الحقيقة يا كايل. لقد شعرت ببعض العوارض، لكنني لم أكترث للأمر، لم يخطر على بالي أنني قد أحمل طفلاً. لم أعلم أنني حامل إلا حينما نقلت إلى المستشفى عقب سقوطي.»

انقبضت اسارير كايل، وقال: «أظن أنني بدأت أفهم.»

«دهشت وذهلت، لم أتمكن من استيعاب الخبر، أما جدي...»

قاطعها كايل وقال بنبرة قاسية: «فجن جنونه.»

«أجل.»

«عاد إلى هاي فالي وانهال عليّ ضرباً وطردني، ثم طرد والدي من بعدي.»

قالت بهدوء: «ما كان يجب أن يفعل ذلك.»

«طبعاً! كان يجب أن يخبرني بما حصل ويسألني عن مدى ضلوعي بهذه القصة.»

«لقد أخطأ فعلاً.»

«أيقن من دون أن يتحدث إليّ أنني أغويت حفيدته الغالية، صغيرته البريئة.»

قالت له ليان بصوت يائس: «قلت لك إنه أخطأ فعلاً، انه يعترف بذلك الآن، أعلم أنك لن تصدق هذا، لكنه آسف فعلاً.»

«أنت يا ليان، لماذا لم تصديه؟ لا بد من أنك كنت تعلمين بما سيفعله. لن أصدق أنه لم يخبرك بذلك.»

«لقد اخبرتك يا كايل أنني كنت مذهولة ومرتبكة.»

«لم تكوني مرتبكة لدرجة أنك لم تتمكني من إيجاد وسيلة لصده.»

«لم يكن في وسعي أن اصده يا كايل، كنت مريضة، وقد

أمضيت عدة أيام في المستشفى. أردت أن أتصل بك، لكن لم يكن لديك هاتف.»

«كان بوسعك أن تطلبي من شخص ما أن يتصل بي...»

«لم يكن أحد برفقتي إلا جدي، وكان...»

انقطعت عن الكلام كي تكفكف دموعها، ثم قالت: «لم أكن قادرة على العودة إلى المنزل إلا بعد عدة أيام. ما إن وصلت إلى هاي فالي حتى ذهبت إلى الاسطبل. حاولت ان أراك، لكنك كنت قد رحلت.»

«لا بد من أنه كان يسعك إيجاد وسيلة ما.»

«لم تكن بيدي حيلة يا كايل. وماذا عنك؟ لماذا لم تكتب لي رسالة؟ لماذا لم تتصل بي؟ حاولت يائسة أن اعرف إلى أين ذهبت، لكن من دون جدوى. القدر وحده يعلم كم انتظرتك! لم افقد الأمل، لكنك لم تتصل بي قط.»

«حفيدة آل ديبوا الجليلة وسائس الخيل الحقير! فلنقل الحق، لقد ظننت أنك لم تعودي تبالين بي.»

غام بصره، ثم سألها: «لم تخبريني يا ليان، هل رزقنا صبياً أو بنتاً؟»

«كف عن تعذيب نفسك يا كايل.»

«صبي أم بنت؟»

«لا أدري، ليتك لا تعذب نفسك كل هذا العذاب، أنت تسيء إلى نفسك يا كايل.»

فقال لها: «كان من حقي أن أعلم، وكان من حقي أن أشتكي، لقد سلبني جدك هذين الحقين.»

«كايل.»

سألها: «هل اشتكيت؟»

قالت ببساطة: «لا أظن أنني كفيت عن التشكي.»

«كان يجب أن نشتكي إلى بعضنا بعضاً يا ليان، فآتي إليك وأنت في المستشفى، وأضمك بين ذراعي وأقبلك وأواسيك وتواسيني.»

قالت بعد برهة: «أنت تعرف الآن القصة بكاملها.»

«أعرف أول جزء منها.»

«ماذا تعني؟»

«لماذا لم تخبريني بما جرى؟»

دهشت ليان حينما سمعت سؤاله، فأجابته: «لقد شرحت لك الموضوع، وقلت لك انك كنت غائباً عن هاي فالي».

«كان ذلك في الماضي، وها اني قد عدت الآن، وقد مضت أسابيع على عودتي، لماذا لم تخبريني؟»

كانت ترتجف حينما أجابته: «لم أتمكن من إخبارك.»

«لقد رزقنا طفلاً يا ليان، وقد أخفيت الخبر عني. ألا تظنين أنه من حقي أن أعلم بذلك، حتى إن كنت قد فقدت الطفل؟»

«كنت سأخبرك بالأمر.»

قال بلهجة مشحونة بالسخرية: «حقاً؟»

«أجل.»

«لماذا لم تخبريني يوم عدت إلى هاي فالي؟»

«لم يسعني إخبارك، فوصولك فاجأني، لم أكن أدري ما أقول.»

«لكن الفرصة سنحت لك أكثر من مرة، متى كنت تنوين إخباري؟ قبل أن نتزوج أو بعد أن نتزوج أو أنك لم تنو إخباري قط؟»

نظرت ليان إلى عينيه وقالت له بصدق: «كنت سأخبرك حينما أشعر بأن الوقت مؤات.»

«لا أصدقك.»

كانت عيناه تعكسان مدى الاحتقار الذي تردد في صوته، ثم انتصب فجأة وراح يطوف حول الغرفة. كانا قد وضعا على الأرض قرب الباب مجموعة من اللوحات تفتقر إلى فسحة على جدران المنزل. كانت إحدى اللوحات قد سقطت جانباً، فلمسها حذاء كايل وخدشها خدشاً خفيفاً، لكن هذا الأخير لم ينتبه للأمر، فسألته ليان: «ما بالك الآن؟»

نظر إليها وقال: «أريدك أن ترحلي من هنا.»

«مجدداً؟»

«أنا بحاجة إلى أن ابقى لوحدي، يجب أن أمعن التفكير بأمر ما.»

وقفت ليان واتجهت نحو الباب، ووضعت يدها اليسرى على مقبضه، فإذ بالخاتم يلفت نظرها، فما لبثت أن أدركت ماذا ينبغي عليها أن تفعل. سحبت الخاتم من إصبعها وناولت كايل إياه، وقالت: «خذه.»

لم يأت كايل حركة، بل نظر إليها وهو يلتزم الصمت.

«الخاتم يا كايل.»

«لا أريده.»

«ألا تفهم؟ أنا أعيده إليك.»

«ضعيه حول اصبعك يا ليان.»

«لماذا؟ نحن لن نحتفل بزواجنا.»

«هل قلت لك ذلك؟»

حدقت إليه ثم قالت: «لقد طلبت مني أن أغادر منزلك.»

«لم أقل اننا فسخنا خطبتنا.»

«هل تعني أنك مازلت تريد الزواج مني؟»

«أجل.»

نظرت إليه لبرهة وهي لا تفهم ما قاله. كان كايل يحدق إليها بازدراء، إلا أنه لا يزال يريدها زوجة له. عجيب أمره!

إذ بها تفهم، فتقول بحزن: «طبعاً، إنك مازلت تريد الزواج مني، فأنت تملك الآن ذريعة للانتقام.»

«تذكري أنك أنت من قال ذلك يا ليان، وليس أنا.»

سمعته يضحك ضحكة ساخرة وهي تخرج من الغرفة لتغادر المنزل.

www.elromancia.com

الفصل الثامن

«كيف أبدو؟»

كانت ليان تنظر إلى المرآة، ثم استدارت حينما دخل جدها الغرفة.

«تبدين جميلة جداً.»

كان صوت الجد ديبوا كئيباً، وقد بدا لليان أن عينيه مغرورقتان بالدموع.

«تحاكين أمك في يوم عرسها. ليت والديك على قيد الحياة، فيرانك في يوم زفافك يا صغيرتي.»

«تمنيت ذلك أيضاً يا جدي.»

وقفت ليان، ومدّ إليها جدها يديه، فذهبت إليه وضمته بذراعيها. طال بهما الوقت وهما يغمران بعضهما بعضاً، حتى ان ليان استطاعت أن تشعر بارتجاف جسمه، ثم أفلتت منه وقالت: «لقد تقبلت كايل، أليس كذلك؟»

«إن كان كايل هو الرجل الذي تحبين، فأنا أتقبله، كل ما أردته في حياتي هو أن تكوني سعيدة.»

«شكراً يا جدي.»

قال لها بصوت مضطرب: «ربما لم أتصرف دائماً تصرفاً صائباً، فأنا لم أخبر كايل بحملك وأكرهته على مغادرة هاي فالي، لكن لم تكن بيدي حيلة أخرى آنذاك.»

«أعرف ذلك، ولا ألومك على ما حدث، لقد كنت دائماً تبغي اسعادي.»

غمرته ثانية، فقال لها: «فلنكف عن ذلك يا ليان، إن السيارة تنتظرنا في الخارج، وقد حان وقت الذهاب.»

احتفل كايل وليان بزفافهما في حدائق هاي فالي. كان هذا اليوم من الأيام الجميلة في كيب، فالسماء زرقاء صافية، والنسيم عليل، والسكون يخيم على الوادي. وكانت الحدائق بأفضل زيها، يكسوها العشب الأخضر النضر، وتحيط بها براعم الأزهار والشجيرات.

سارت ليان عبر الحديقة وهي تضم ذراع جدها بيد، وتحمل باقة كبيرة من الورد الأحمر والزهور البيضاء بيد أخرى. ما إن وصلا حتى شرع عازف البيانو في عزف لحن العرس ووقف المدعوون الذين كانوا يجلسون على الكراسي.

لم تكن ليان دارية بما يجري من حولها، بل كانت عيناها شاخصتين إلى رجل واحد أطول من أي شخص وقف ليرنو إليها وأجمل من أي مدعو يحضر زفافها. أما هو، فكان يرنو إلى وجهها فيما كانت تسير نحوه وقلبها مفعم بحبه، ثم وقفت إلى جانبه، وبدأ الاحتفال بزواجهما. دنا منها كايل عقب الاحتفال، وقبّلها على وجنتها، فأغمضت عينيها كي تستمتع بهذه اللحظة الجميلة، ثم ناداها بصوت ناعم، ففتحتهما. رأت ابتسامة صغيرة تعلو ثغره، ولمحت ومضة حنان تلتمع في عينيه.

تنفست الصعداء حينما تحلق المدعوون من حولهما يقبلونهما ويقدمون إليهما التهاني، وكان من بينهم جدها الذي كان يبدو أنيقاً بهندامه الرمادي، وخالتاها اللتان قدمتا من منطقة ترانسفال إلى هاي فالي كي تحضرا الزفاف، وبعض الأصدقاء والجيران.

سألها أحد الأصدقاء بحرارة: «لماذا لم تخبرينا بأنكما مخطوبان حينما كنت مضيفة كايل؟»

قال لها صديق آخر: «نحن مسرورون بعودة فردٍ من أفراد عائلة ديبوا إلى هاي فالي.»

ثم همست إلزبت باربر في أذنها: «من حسن الحظ أنكما لم تفسخا خطبتكما حينما علم كايل بأمر الطفل. كنت متأكدة من أنه كان يعلم بالأمر، لكن ما إن رأيت ردة فعله حتى أدركت أنني مخطئة، فندمت كل الندم، ووددت لو أسحب الكلمات التي تفوّهت بها.»

قال لها تيد لورانس الذي كان قد تحقق من جدوى إعادة تأهيل الحقول الواقعة خلف السياج: «إذاً، تزوجته يا ليان. كنت أتساءل كيف ستبدلين رأيه بالنسبة إلى تنفيذ المشروع التجاري.»

لم يجتمع كايل وليان معاً إلا حينما بدأ الرقص، فاتجها إلى حلبة الرقص كي يفتتحا رقصة الفالس. ابتسم لها كايل وقال: «لقد أصبحت الآن امرأة متزوجة يا سيدة آفيري.»

ذكرته تذكيراً سريعاً بقولها: «متزوجة فقط بالإسم.»

«لقد نذرنا أنفسنا إلى بعضنا بعضا.»

«بالكلام فقط.»

راح كايل يحدق في عينيها، ثم سمعته يضحك ضحكة خافتة وهو يجذبها إليه، فاستحال الكلام بينهما.

لم تفارق البسمة شفتي ليان طوال حفلة الزفاف، فهي لن تدع أحداً يعلم أن قلبها منكسر، لأن اليوم الذي من شأنه أن يكون الأجمل في حياتها لم يكن سوى تمثيلية. وابتسمت حينما قطعت كعكة الزفاف، وحينما رمت باقة الورد إلى نسيبتها المفضلة، وحينما قبّلها كايل وهو يؤدي دور العريس المحب، وابتسمت حتى بدأ وجهها يؤلمها.

بدأ المدعوون يغادرون، وكان الجد ديبوا آخرهم. وغمز ليان للمرة الثالثة في هذا اليوم وهمس إليها: «أتمنى لك كل السعادة يا صغيرتي.» ثم صافح كايل وقال له: «اعتني بها.»

ما إن رحل جدها حتى أصبحت ليان محرّرة من قيود اللياقة. لقد كانت لوحدها مع كايل، مع زوجها، فتولاها الاضطراب فجأة. لقد انتهى الزفاف الآن، ماذا بعد؟ لقد نقلت بالأمس أغراضها إلى هاي فالي بناء على طلب كايل، وقد أصبح المنزل الذي عاشت فيه معظم حياتها منزلها من جديد، لماذا تشعر إذاً بأنها غريبة، لا تدري كيف تتصرف.

قال لها كايل وكأنه قرأ أفكارها: «لماذا لا تبدلين ثوبك وترتدين ملابس تريحك أكثر؟»

«سوف أرتدي سروالاً وقميصاً.» ثم قالت في سرها: إن كان يظن أنني سأرتدي الملابس التي تلبسها العروس في ليلة زفافها، فهو مخطىء.

أجابها وهو يبتسم ابتسامة عريضة: «فليكن!»

توقفت ليان عند باب الغرفة الرئيسية وقد أدهشتها رؤية سروالها وقميصها مرميين على السرير الواسع، وحذائها المفضل ملقى على الأرض، كأنما كايل حزر ماذا ترغب في أن ترتدي. كان قد رفض اعتراضها وأصرّ على أن تنام معه في الغرفة نفسها، فقد استخدم مدبرة منزل سوف تستغرب أن ينام العروسان كل في غرفته. أدركت ليان أنها لن تستطيع اقناعه، إلا أنها أبت أن ترتدي ملابسها في الغرفة نفسها، فهي لم تكن تشعر بأنها متزوجة منه.

دخلت ليان الحمام كي تنزع عنها الثوب الأبيض الأنيق الذي شهد على أول أداء تمثيلي ماهر تقوم به، وما إن

عادت إلى الغرفة الرئيسية حتى رأت كايل ينتظرها وقد بدل هو أيضاً ملابسه. فقال لها: «تعالي.»

«إلى أين؟»

«سوف ترين.»

خرج من الغرفة فتبعته، ثم خرج من المنزل، فتبعته أيضاً. كانت السيارة الفضية متوقفة في الباحة وقد فتح باباها، ثم أشار كايل إلى أن تركب، ففعلت وهي تهز بكتفيها.

سألها وهما يغادران هاي فالي: «هل استمتعت بحفلة الزفاف؟»

«لقد انقضت بسلام.»

«أنا لم أسألك هذا السؤال.»

«ماذا تريدني أن أقول يا كايل؟ كنت أعلم بأننا نمثل، لا أظن أن أحداً كشف حقيقة أمرنا.»

قال لها كايل: «لقد كان جدك مهذباً كل التهذيب.»

«لقد قرر جدي أن يوافق على... على زواجنا، وقد كرر لي هذا الصباح أنه آسف على ما فعله منذ سبع سنوات.»

سوّت ليان جلستها حينما سلك كايل الطريق العام.

«إلى أين نحن ذاهبان؟»

«قلت لك إنك سترين إلى أين نذهب. جدك آسف إذاً، أليس كذلك؟»

اجابت بصوت منخفض: «إنه آسف حقاً.»

«أنا أصدق ذلك يا ليان.»

أدارت وجهها ونظرت عبر النافذة. ولم تتمالك لتسأله السؤال نفسه: «إلى أين نحن ذاهبان؟ يجب أن أعرف.»

«حسناً، نحن ذاهبان إلى بيت صغير يقع على طريق غاردن روث.»

«غاردن روث؟ لكنه مكان بعيد جداً، سوف نستغرق ساعات كي نبلغه!»

ألقى عليها نظرة ضاحكة وقال: «ولِمَ العجب؟ ألم تتوقعي أننا سنمضي معاً شهر العسل؟»

لقد أفعم هذا السؤال قلب ليان سعادة كبرى. شهر العسل! لحظات تمضيها لوحدها مع كايل، لحظات تلملم فيها حباً صيّره الماضي الأليم فتاتاً، لحظات تميط فيها اللثام عن الحب العظيم الذي تكنه له، لحظات قد ينبعث فيها الحب الذي كان يكنه لها والذي أرداه الحقد وطمرته الضغينة.

ما لبثت ليان أن استفاقت من حلمها العذب هذا، فقالت له: «ولماذا نمضي شهر عسل؟»

«أليس هذا ما يفعله العروسان عادة؟»

«ليس حينما يكون زواجهما خدعة، أم أن شهر العسل فصل من فصول المسرحية التي نؤديها، يضاف إلى خاتم الخطبة الثمين والثوب الأبيض وحفلة الزفاف الحاشدة التي أقمتها بدل أن ننظم حفلة بسيطة، أم أنك لا تشعر بأن انتقامك سوف يكتمل إلا به.»

سألها ببطء: «وهل تهمك دوافعي؟»

«طبعاً، لماذا لم تخبرني بخطتك؟»

ابتسم لها ابتسامة عريضة وقال: «لأنني أعرف الجواب سلفاً.»

«عرفت أنني سأرفض الذهاب، فخطفتني.»

ضحك كايل ضحكة مثيرة، فقالت: «لو عرفت أننا ذاهبان بعيداً، لكنت أعلمت جدي، فسوف يتساءل أين نحن.»

قال لها: «لقد دبّرت الأمر. لا بد من أنه أخذ علماً بذلك الآن.»

«وعملي؟ يجدر بي أن أستأنف عملي غداً.»

«لقد دبّرت الأمر أيضاً.»

«من حسن الحظ ان المؤتمر قد انتهى.»

«طبعاً.»

إذ بفكرة أخرى تخطر على بالها: «لم أجلب معي ثياباً أرتديها إلا هذه التي ألبسها الآن.»

«نحن ذاهبان إلى مكان لن تحتاجي فيه إلى ثياب غيرها، ممن تخجلين يا ليان؟ إننا متزوجان الآن وسوف نمضي شهر عسل معاً.»

«لفترة وجيزة فقط.»

«ليست هذه حجة كي لا نستمتع بوقتنا، ألا تتذكرين النخب الذي شربناه ليلة خطبتنا يا ليان؟»

كيف لا تتذكره؟ لكن ليان لم تتمكن من التفوه بتلك الكلمات، فأدارت رأسها نحو النافذة وقد اغرورقت عيناها بالدموع حتى أنها لم تعد ترى أقرب الأشياء.

توقفا لبعض الوقت كي يتناولا الطعام، ثم عادا وسلكا الطريق العام حتى أشرفت الشمس على المغيب، فما لبث كايل أن سلك طريقاً وعرة أفضت بهما إلى شاطىء رملي. ورأت ليان عبر العتمة بيتاً صغيراً يقع في الجانب الآخر، فقال لها كايل: «إنه بيت صغير لصيد السمك يملكه أحد أصدقائي، وهو يضعه في تصرفنا لمدة اسبوعين.»

«اسبوعان أمضيهما من دون أن أبدل ثيابي في مكان بعيد، سوف يكون ذلك...»

«مغامرة... مغامرة رومانسية.»

لاح لليان عبر الظلمة الحالكة البريق الذي التمع في عينيه، فقال لها: «تعالي.»

أمسكت ليان اليد التي مدّها إليها ودخلت معه البيت الصغير. كان يبدو مريحاً في الداخل أكثر من الخارج، فلا بد من أن أحداً ارتاده خلال الآونة الأخيرة، فهو نظيف ومنظم، فقد علق في الزاوية رف وضعت عليه أدوات صيد السمك جميعها: شباك وصنانير صيد وأشراك، أحذية سميكة وستر مصنوعة من قماش لا يبلله الماء. كان الموقد مليئاً بالحطب، وقد فرش أمامه جلد خروف. أما السرير، فكان موضوعاً تحت النافذة، وهو ليس بالواسع فقال كايل لليان: «إنه يتسع لشخصين.»

«لا أظن ذلك.»

«سوف تتأكدين من ذلك.»

«ربما، لكنه يتسع لصديقين لا لعدوّين.»

«وهل نحن عدوان يا ليان؟»

«نحن رجل وامرأة يؤديان دور الزوج والزوجة، لا يمكن أن ننام معاً في السرير نفسه.»

«سوف نتجادل في هذا الموضوع لاحقاً.»

«كلا يا كايل، يجب ان نضع النقاط على الحروف الآن، أنا أفهم لِما ينبغي علينا أن ننام في الغرفة نفسها في هاي فالي، لكن ليس من أحد هنا كي...»

ضحك ثم قال: «أنت تتكلمين كثيراً يا عروسي الحبيبة.»

«لكن يا كايل...»

مد إليها يده وقال لها: «تعالي نبلل أرجلنا قبل أن يحل الظلام.»

أمسكت يده، ثم خرجا من البيت معاً. ما ان وصلا إلى البحر حتى نزعا حذاءهما وأخذا يمشيان على الرمل المبلل. أفلت كايل يد ليان كي يرفع سرواله إلى ركبتيه، فحذت ليان حذوه،

ثم أمسكت يده مجدداً وسارا على زبد الأمواج المتعالية والمرتطمة على الصخور، مولدة رذاذاً يبلل شعرهما ويلفح وجهيهما. كانا يمسحان الملح عن شفتيهما ويضحكان، فتنصهر نبضات قلبيهما برنين الضحكة وخرير الموجة.

ما لبثا أن غادرا الشاطىء وعادا إلى البيت، فما إن دخلته حتى شعرت بالدفء والطمأنينة، لكنها قالت وهي تغلق الباب لتصد الهواء: «إن ثيابنا مبللة.»

«أعرف ذلك.»

«وليس لدينا ثياب أخرى هنا... أو ليس لديّ ثياب غيرها.»

«ألا تذكرين أنني قلت لك إنك لن تحتاجي إلى غيرها.»

فاحتجت قائلة: «من الصعب أن أمضي اسبوعين وأنا أرتدي السروال نفسه، سوف يجمّد ملح البحر القماش.»

ضحك كايل وقال: «يا للمشهد المضحك! لكن بوسعك أن تغسليه وتنشريه في الشمس فينشف.»

«وماذا أرتدي في غضون ذلك؟»

«لن يراك أحد يا ليان، فالمكان يكاد يكون مقفراً.»

«إلا منك.»

«لكنني زوجك يا ليان.»

«هل نسيت الشروط التي اتفقنا عليها؟»

«أنت من وضع تلك الشروط يا حبيبتي، أما أنا فرفضتها.»

فاجأها كلامه فقالت: «سبق لي ان قلت لك كيف ستتم الأمور بيننا، ولم تعارضني قط.»

«لكنني لم أوافق على كلامك.»

«ظننتك فهمتني.»

ضحك ضحكة خافتة وقال: «لقد أخطأت الظن.»

«لكن يا كايل، لن نعيش مع بعضنا إلا لبضع سنوات... إن عشنا معاً حياة زوجية طبيعية، سوف يشق عليّ الفراق يا كايل، كما أن الظروف...»

قاطعها قائلاً: «لا أحفل بالظروف! أنا لا أنوي الآن إلا أن أستمتع بوقتي مع زوجتي.»

«كلانا يعرف أن زواجنا ليس سوى تمثيلية.»

«ربما كان زواجنا تمثيلية، مع ذلك، فإننا أدّينا دورنا خير تأدية، لقد خدعنا جدك أيضاً. لِمَ لا نمثل الآن دور الزوجين اللذين يمضيان معاً شهر العسل؟ ربما انتهى بنا الأمر إلى خداع أنفسنا...»

كانت الشمس قد أشرقت عالياً في السماء حينما استيقظا في اليوم التالي. نهضت ليان من الفراش كي تحضر الفطور، فدهشت حينما وجدت كمية وافرة من الطعام. لا بد من أن كايل هو الذي دبّر الأمور قبل مجيئهما إلى هنا.

حضّرا سلة ووضعا فيها بعض الثمار والخبز وذهبا إلى الشاطىء. ليسبحا ويتعرضا لأشعة الشمس ويتمشيا على طول الشاطىء.

ما إن عادا إلى البيت حتى وجدت ليان مفاجأة ثانية، ففتح كايل صندوق السيارة وأخرج منه حقيبة تحتوي على ثياب ليان، فابتسمت له وقالت: «أقر بأنك مخطط بارع! فقد نظمت اختطافي أحسن تنظيم، ولم تفتك لا شاردة ولا واردة!»

توالت الأيام، أيام سعد وهناء أمضاها كايل وليان يتحادثان ويضحكان وكأنهما يعوضان عن السنوات الغابرة.

كانا يستمتعان بكل لحظة يمضيانها معاً وهما يتمشيان ويسبحان ويصيدان السمك تحضيراً لطعام العشاء، وكانا يتحادثان بطيبة ومودة.

رجعا إلى هاي فالي بعد مرور اسبوعين. تركت ليان كايل يخرج الأمتعة من السيارة وسارت عبر الحقول نحو البيت الصغير. لمحت جدها قبل أن يراها، فكان نائماً على كرسيه وقد فاض غليونه رماداً، وكان يبدو نحيلاً جداً.

لمست ليان وجنته وقالت بصوت خافت: «جدي...»

تمتم كلمات غير مفهومة، ثم جحظت عيناه وقال بصوت متردد: «ليان؟»

«هذا أنا، لقد عدنا يا جدي.»

«خلت لبرهة أنني أحلم، لكن هذا أنت حقاً! تعالي يا صغيرتي واغمري جدك غمرة كبيرة!»

ضمت ليان جدها بذراعيها، فقال لها: «هل يعاملك زوجك معاملة حسنة؟»

«أجل يا جدي، إنه يعاملني معاملة رائعة.»

«يسرني سماع ذلك، ويسرني رجوعك إلى هنا يا ليان، حتى وإن لم يعد هذا البيت بيتك.»

«إن هاي فالي هو المكان الأقرب إلى بيتك. لا أدري ان كان يوجد في المنزل طعام، على أي حال، سوف نتناول معاً طعام العشاء غداً.»

«ربما لن يرغب زوجك في حضوري.»

«لا أظن ذلك يا جدي. سوف أمرّ غداً لأصطحبك وأنا عائدة من المكتب.»

دهش جدها لسماعه هذا الكلام، فسألها: «هل ستستأنفين عملك يا ليان؟»

«طبعاً، لا بد من أنني انقطعت عنه مدة طويلة.»

ثم جلست إلى جانبه وقالت: «أخبرني الآن، ماذا فعلت خلال فترة غيابي؟»

كرر كايل السؤال نفسه الذي طرحه الجد على ليان، فقال في ساعة متأخرة من ذاك المساء: «هل ستستأنفين عملك يا ليان؟»

«أجل.»

«لست بحاجة إلى العمل، فأنا قادر على إعالتك.»

«هذا صحيح في الوقت الحاضر، لكن عليّ أن أعيل نفسي مجدداً حينما ينتهي زواجنا. إنني أشغل منصباً مرموقاً يا كايل، وربما لن أجد عملاً أفضل ثانية.»

أطال كايل النظر إليها، نظرة مجرّدة من أي شعور ثم قال لها: «افعلي ما يحلو لك يا ليان.»

الفصل التاسع

مضى شهران تقريباً على زواج كايل وليان حينما بدأت هذه الأخيرة تشكك في أنها قد تكون حاملاً.

وكانت ليان قد تجاهلت العوارض الأولى: كانت تشعر بالغثيان الخفيف حينما تنظر إلى بعض اصناف الطعام، وكان ينتابها شعور بالتعب في الوقت الذي يجدر بها أن تكون مفعمة بالحيوية والنشاط.

ذات مساء، وضعت مدبرة المنزل على الطاولة طبقاً من السمك المشوي المفضل لدى ليان، فشعرت هذه الأخيرة بغثيان حاد، فاضطرت إلى الابتعاد عن الطاولة واللجوء إلى غرفتها.

استفاقت باكراً في اليوم التالي وحددت موعداً مع الطبيب وطلبت من المصنع الذي كانت تعمل فيه إجازة مرضية في اليوم التالي.

عاينتها طبيبة شابة، وقالت لها بعد معاينة دقيقة: «أجل يا سيدة آفيري، أظن أنك حامل، لكنني بحاجة إلى فحص طبي كي أتأكد من ذلك.»

أشرقت عينا ليان، فقالت: «سوف أنجب طفلاً؟ لقد شككت في الأمر. لكن، لا استطيع أن استوعب ذلك.»

سألتها الطبيبة: «منذ متى أنتما متزوجان؟»

«منذ حوالي شهرين.»

«سوف يسر زوجك بالخبر.»

خبا النور الذي أشرق في عيني ليان، فقالت: «ربما.»

«تبدين غير متأكدة من ذلك.»

«لست متأكدة من أن زوجي يرغب في أن يكون أباً.»

نظرت إليها الطبيبة نظرة ملاطفة وقالت: «لم يمضِ على زواجكما فترة طويلة، وربما حصل ذلك في وقت مبكر، لكنني اكتشفت بعد خبرتي أن الأزواج يسرون بخبر كهذا بقدر ما تسر به زوجاتهن.»

الأزواج الذين يرغبون في أن يدوم زواجهم إلى الأبد، الأزواج الذين يحبون زوجاتهم. ثم قالت لها: «هناك مطعم في الزاوية المقابلة، لِمَ لا تذهبين إليه وترتشفين فنجان شاي؟ إن عدت بعد ساعة، سوف يكون بإمكاني أن اطلعك على نتيجة الفحص.»

قررت ليان أن تفعل ما اقترحته عليها الطبيبة. كانت قد انتبهت إلى المطعم وهي في طريقها إلى العيادة، فسرت حينما وجدت طاولة خالية قرب النافذة.

دنت النادلة من الطاولة، فطلبت ليان كوباً من الشاي وقطعة من الخبز الخالي من الزبدة.

ارتشفت الشاي، ثم سكبت كوباً ثانياً، إذ لم يسعها إلا أن تتناول الشاي فيما لم تلمس قطعة الخبز. ما إن انتهت من شرب الشاي حتى ألقت نظرة على ساعتها. لقد حان الوقت كي تعود إلى عيادة الطبيبة، فأشارت إلى النادلة وطلبت الفاتورة.

كانت ليان قد أيقنت أن الفحص سيكون إيجابياً فاقترحت عليها الطبيبة أن تحدد موعداً كي تعاينها ثانية بعد مرور شهر.

عادت ليان إلى المصنع لكنها لم تتمكن من التركيز على عملها، فقد استحال عليها أن تصرف ذهنها عن التفكير في كايل وفي الطفل.

تلقت رسالة من مدير المصنع يهنئها فيها على نجاح مؤتمر تجار الألبسة، لكن ليان قرأتها قراءة سريعة، ثم ضمتها إلى ملف يحتوي على رسائل أخرى مماثلة.

ما إن انتهى دوام العمل حتى عادت إلى المزرعة، فرأت أن الباحة خالية. لم تلمح كايل، فقالت لها مدبرة المنزل واسمها آنّا انه غادر المزرعة في الصباح الباكر من دون أن يحدد وقت عودته.

ذهبت ليان إلى غرفتها بعد أن رفضت تناول الطعام حينما عرضت عليها آنّا ذلك، فنزعت عنها ملابسها واستحمت ثم خرجت ونظرت إلى نفسها في المرآة، فرأت أن جسمها لم يتغير بعد، لكن لا بد من أن يتغير قريباً.

استلقت على السرير بعد أن ارتدت سروالاً قصيراً وقميصاً، فتناهى إلى سمعها قرقعة القدور في المطبخ، وادركت ان آنّا تحضر الغداء. أغمضت عينيها وتساءلت إن كان باستطاعتها تناول الغداء.

تناهى إلى سمعها فجأة هدير سيارة ألفته أذنها، فصممت ألا يراها كايل مستلقية على السرير. لذا، نهضت بسرعة، وغسلت وجهها وسرحت شعرها، ووافته إلى باب المدخل.

قال لها كايل وقد بدا مسروراً لرؤيتها: «مرحباً، لقد عدت قبلي إلى المنزل.»

قالت له ليان: «أخبرتني آنّا أنك سوف تغيب طوال النهار.»

«لقد كنت منشغلاً.»

وضع يده على وجنتها وقال لها: «لا أدري إن كان العشاء جاهزاً، لكنني أود أن ارتاح قليلاً في الحديقة قبل أن نأكل. أتظنين أن ذلك سوف يزعج آنّا؟ كلا؟ عظيم! أنا أرغب في بعض العصير، هل تشاركينني يا ليان؟»

«كلا، ليس الآن.»

«هل أنت متأكدة.»

«أجل، إنني أفضل الفاكهة.»

همت بالدخول إلى المنزل، فاعترضها كايل قائلاً: «سوف أدخل بنفسي وأجلب الشراب.»

نزع كايل سترته وألقاها على كتفه وهو داخل إلى المنزل، أما ليان فذهبت إلى الحديقة واتجهت إلى بقعة تظللها شجرة سنديان قديمة بأسفل هاي فالي، وضعت فيها كراسي خشبية. ما لبث كايل أن أطل وهو يحمل صينية، فرأته ليان وهي تقول في نفسها: يا لهناء الحياة الزوجية! ليت الظروف كانت مختلفة!

انتظرت ليان إلى أن ارتشف كايل العصير ثم قالت: «لدي خبر أعلمك به، إنني...»

قاطعها كايل: «أنا أيضاً، لدي خبر يجب أن أعلمك به.»

«لكن يا كايل...»

«أنا مضطر إلى السفر لبضعة أيام.»

كانت نظرات كايل هائمة، وكان مستغرقاً في أفكاره، فلم يلاحظ الجهد الذي بذلته ليان كي تتكلم، فسألته بعد برهة: «إلى أين أنت مسافر؟»

«إلى الشمال.»

«هل هذه رحلة عمل؟»

«أجل.»

تذمرت ليان وقالت: «لكن الأعمال تسير على ما يرام من دون حضورك، فقد كنت على اتصال مستمر بمكتبك هناك بواسطة آلة الفاكس والكمبيوتر.»

«هذا صحيح، لقد كانت الأعمال تسير على مايرام مع أنه آن الأوان كي أنشىء مكتباً آخر هنا، لكن طرأ عليّ عمل مهم. لن أدخلك في التفاصيل، لكن الأمر طارىء وينبغي عليّ أن اسافر في أقرب وقت ممكن.»

«متى ستغادر هاي فالي؟»

«سوف أسافر على متن أول طائرة غداً صباحاً كان يتعين عليّ أن أسافر اليوم، لكن لم يكن هذا ممكناً ولم أشأ أن اغادر البلدة من دون أن اعلمك.»

«هل ستغيب طويلاً؟»

«سأغيب لبضعة أيام، آمل ألا اغيب أكثر من أسبوع. سوف يسعك أن تتدبري أمورك هنا، أليس كذلك؟»

نظرت إليه نظرة جافة ثم قالت له: «هل نسيت أن هاي فالي كانت منزلي قبل أن اتزوجك بمدة طويلة؟»

دنا منها ولمس وجنتها، ثم قال: «أنت على حق، لقد كان سؤالي تافهاً، اعتبري اني لا أعي ما أقول من كثرة الانشغال.»

ابتسمت له وقالت: «لقد سامحتك.»

رشف ارتشافة أخرى، ثم قال: «يحدثني شعور بأنني قاطعتك، فقد اردت أن تعلميني بخبر ما.»

«سوف أبقيه سراً إلى أن تعود.»

«هل أنت متأكدة؟»

«كل التأكيد.»

لقد كان كايل غارقاً في أفكاره، فلم يكن الوقت مؤاتياً كي تخبره بأمر الطفل. كانت تصر ليان على أن تستحوذ على كامل انتباهه وهي تخبره بالأمر، فآثرت في الظروف الراهنة أن تنتظر عودته.

ثم سألها: «هل نظمت مشروعاً لهذه السهرة؟»

«كلا.»

قال لها ببطء: «هذا من حسن حظي، لأن لدي مشاريعي الخاصة.»

غداً سوف يغادر كايل هاي فالي، فلن تخبره بأمر الطفل إلا حين عودته.

لم تكن ليان تدرك أنها ستشتاق إلى كايل كل هذا الشوق. كان السرير الذي ينامان عليه يبدو واسعاً وخالياً، وكانت ليان تتململ في فراشها، تبحث عن دفء زوجها، فلا تلمس يدها سوى الشراشف والأغطية، فتستيقظ خائبة الأمل وتتساءل بحزن كم سيدوم غياب كايل عنها؟

كانت أوقاتها حافلة بالعمل في المصنع، مما ساعدها على تحمل أيام غيابه، وغالباً ما كانت تمر بالمنزل الصغير وهي عائدة إلى منزلها، فتمضي بعض الأوقات برفقة جدها وتتناول معه أحياناً طعام العشاء. وكانت أكثر الاوقات التي تشتاق فيها لكايل عندما تجلس وحيدة في هاي فالي، أما هو فكان يتصل بها من حين إلى آخر لكن ليس كل مساء، فتأوي ليان إلى فراشها وهي حزينة لأنها لم تسمع صوته.

ذات يوم، وصلت ليان إلى هاي فالي في ساعة متأخرة من بعد الظهر، فرأت السيارة الفضية متوقفة في الباحة وسرعان ما تسارعت نبضات قلبها: كايل! ضغطت على المكابح وترجلت من السيارة. كان الباب مفتوحاً، فدخلت المنزل ونادت كايل.

كان كايل واقفاً عند باب المكتبة، وكانت عيناه تلتمعان، وكان شعره مبعثراً. ابتسم لها، فافترت شفتاه عن اسنان لؤلؤية. مد إليها ذراعيه وناداها، فسألته بعدما قبلها: «لماذا لم تعلمني بمجيئك؟»

«أنا نفسي لم أعلم بذلك إلا باكراً، لقد تمت تسوية الأمور بصورة مفاجئة، فاتصلت بشركة الطيران ولحسن حظي، وجدت طائرة آتية إلى هنا.»

«كنت وافيتك إلى المطار.»

«هل نسيت أنني تركت سيارتي في المدينة؟ أظن أنني فاجأت آنّا أيضاً، فقد بدت مندهشة حينما وصلت. لا أظن أن طعام العشاء متوفر في المنزل هذه الليلة، أليس كذلك؟»

قالت له: «سوف نؤمنه لك على جناح السرعة.»

ابتسمت له ثم تابعت قائلة: «لقد كنت أتناول العشاء مع جدي معظم الأحيان، لكنني ربما أجد طعاماً نأكله.»

«وإلا خرجنا معاً لناكل في مكان آخر.»

ثم ضمها وقال: «تسرني رؤيتك من جديد يا ليان.»

أما بالنسبة إليها، فكانت رؤيته تشعرها بمنتهى السعادة، إلا أن ليان اكتفت بمبادلته الاطراء وقالت بهدوء: «تسرني رؤيتك أيضاً.»

ابتسمت ثانية وتابعت: «لقد كنت أمزح، سوف نأكل في المنزل ثم...»

كانت تريد أن تقول، ثم سأطلعك على خبر ما. لكن تلك الكلمات لم تبرح شفتيها، إذ ان شخصاً آخر خرج من غرفة المكتبة.

إنه شخص غريب، امرأة تناهز الثلاثين من العمر، ممشوقة القد وجميلة، شعرها داكن اللون، قصير وجهها الجذاب. كانت ترتدي قميصاً أرجوانياً أنيقاً.

أبعد ذراعيه عنها واستدار نحو المرأة التي وقفت إلى جانبه وقالت: «ألن تعرّف بي؟»

«طبعاً. إنها ليان، زوجتي. ليان، هذه هي انغريد ميسي.»

مدت انغريد يدها إلى ليان وقالت: «مرحبا يا ليان. يسرني التعرف بك، فقد اخبرني كايل الكثير عنك.»

كانت تبتسم ابتسامة واثقة وتتصرف تصرفاً متكلفاً، بعيد كل البعد عن ارتباك ليان التي اخفت شعورها وابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: «يسرني التعرف بك أيضاً يا انغريد. هل أنت إحدى أنسباء كايل أو إحدى اصدقائه؟ أعذريني إن بدوت جاهلة...»

قال لها كايل: «انغريد أمينة عام مكتبي، لقد كنا نعمل معاً طوال هذا الاسبوع، لكننا لم ننه عملنا كله، فاقترحت عليها أن تأتي معي إلى هنا لبعض الوقت، وقلت لها انه يمكنها المكوث في هاي فالي.»

قالت ليان بسرعة وبلطف: «أجل، طبعاً.»

قالت انغريد: «لن تكون هناك مشكلة، أليس كذلك؟»

«لا، طبعاً لا.»

«أعني أنه لم يجدر بي التطفل عليكما وأنتما لا تزالان عريسيين.»

ابتسمت لانغريد ثانية بعد أن تذكرت تقاليد عائلة ديبوا وحسن ضيافتهم الذي اشتهروا به منذ عدة قرون، ثم قالت لها: «لا يجوز أن تشعري بأنك متطفلة، أهلاً بك في منزلنا. لقد كان كايل يمزح حينما كنا نتكلم على الطعام، أظن أنه ينبغي عليّ التحدث إلى آنّا بشأن العشاء.»

جلسوا إلى المائدة بعد ساعة تماماً، فبدت انغريد معجبة أشد الاعجاب بما حولها، قالت بصوت مثير: «هذا رائع! كنت أظنك تغالي حينما كنت تخبرني عن هاي فالي، لكن ما قلته كان صحيحاً، لقد أخطأت الظن.»

كانت ليان تتساءل منذ متى تعرّف كايل إلى هذه المرأة؟ وما هو مدى علاقتهما؟ فتظاهرت بأنها منشغلة بسكب الطعام حتى لا يرى كايل وانغريد التساؤلات في عينيها.

لكنهما لم ينظرا إليها، فكان كايل يقول لانغريد: «ربما فهمت الآن لماذا عدت إلى هنا.»

ابتسمت انغريد وأجابته: «أجل، فهمت تماماً.»

«لم تشاهدي بعد أشياء كثيرة. سوف نريك غداً الاسطبل.»

«الاسطبل الذي بدأت فيه حياتك. عجيب امرك يا كايل، لا يمكنني أن اخالك سائس خيل. إن قصتك تحاكي قصة ميمبو ـ ديمبو، أليس كذلك؟»

«تماماً.»

ثم ضحكا ضحكة عالية، لكن ليان لم تفهم ما قالته انغريد فسألت: «ميمبو ـ ديمبو؟»

اعرضت انغريد عن الضحك وأجابتها: «إنها مزحة خاصة، يمكننا أن نخبرك بها، لكن ذلك سوف يستغرق وقتاً طويلاً وسوف تملين.»

«انغريد على حق يا ليان. لا شك في أنك ستملين. إنها قصة قديمة جداً ولا فائدة من إخبارها. لكن يا انغريد، لا تذكري مزحات كهذه بعد الآن، فقد تنزعج ليان.»

ما إن انتهوا من تناول الطعام حتى خرجوا إلى الشرفة. شرع كايل وانغريد يتحدثان عن فيلم شاهده كلاهما، وكان حديثهما صاخباً، فلم ينتبها لعدم مشاركة ليان فيه. ثم تفوهت انغريد بمزحة أخرى، لكن ليان لم تطرح أية سؤال، كما أن كايل لم يبد أية ملاحظة.

مزحات خاصة... كلمتان تحملان معنى حميماً، فخطرت على بال ليان أفكار وتساؤلات ودت لو تسهو عنها، لكن كان يشق عليها أن تسهو عن سؤال واحد: ما هو الدور الذي تؤديه انغريد ميسي في حياة كايل عدا أنها أمينة سر مكتبه؟

انقضت السهرة فأحست ليان بالتعب. لقد كانت دائماً

مفعمة بالنشاط والحيوية إلى أن اصبحت حاملاً. أما كايل وانغريد، فلم يبدُ عليهما أي دلائل تشير إلى الارهاق. لكن حان وقت لم تعد ليان تتحمل فيه الجلوس، فانتصبت وقالت: «أتسمحان لي؟ لقد امضيت يوماً طويلاً...»

مد إليها كايل يده وأمسك بيدها وقال: «سوف أوافيك قريباً.»

قالت له بهدوء: «أنا بانتظارك.»

قررت ليان وهي تستعد للنوم أن تنتظره فعلاً. كانت طوال هذا الأسبوع تتحرق شوقاً إلى أن تغفو بين ذراعيه، وقد أحست حينما كان يغمرها قبل بضع ساعات بأنه يبادلها الشوق نفسه: سوف تخبره بأمر الطفل بعد أن يدخل الغرفة.

ارتدت ثياب النوم الأجمل لديها، وتعطرت بالعطر المفضل لدى كايل، ثم اطفأت النور وأضاءت القنديل الموضوع قرب السرير. تناهى إلى مسمعها عبر النافذة المفتوحة صدى صوتهما، لكن الكلمات لم تكن مفهومة، وسمعت تقطع ضحكاتهما المتبادلة. أخذت ليان الرواية التي كانت تقرأها طوال الأسبوع كي تبقى مستيقظة، لكنها لم تكن تدرك أنها متعبة هكذا، فأغمضت عينيها لبضع لحظات، لكن النعاس غلبها، فلم تدر متى أفلت الكتاب من بين يديها، ومتى القت رأسها على الوسادة.

لم تسمع وقع خطى كايل وهو يدخل الغرفة، ولم تر نظرته الخائبة ولا البسمة التي علت ثغره وهو يرنو إليها، لم تأت بحركة حينما وضع الكتاب على الطاولة وأطفأ نور القنديل، ولا حينما انحنى وقبلها قبلة صغيرة على وجنتها.

في صباح اليوم التالي، كانت ليان تدخل غرفة الطعام حينما بادرتها رائحة اللحم، فشعرت بالغثيان وقررت ألا تتناول أي طعام، وألا ترتشف القهوة.

توقفت عند باب غرفة الطعام. كانت الشمس ترسل اشعتها عبر النوافذ الشرقية على الطاولة التي كان كايل وانغريد جالسين إليها بالقرب من بعضهما. كانا غارقين في الحديث، فلم ينتبها لدخول ليان، ثم تفوهت انغريد ببعض الكلمات بصوت عذب ومثير، فأمسك كايل يدها وضحك.

شعرت ليان بالألم يطعن قلبها، ثم قالت بصوت خافت بعد أن استعادت قدرتها على الكلام: «صباح الخير.»

استدار الرأسان نحوها، ثم قال لها كايل: «مرحباً يا ليان، لقد شرعنا في تناول الفطور من دونك. تعالي وانضمي إلينا.»

«لكنني خارجة.»

سألتها انغريد بفضول: «من دون أن تأكلي؟»

كانت انغريد ترتدي ثوباً أزرق اللون باهتاً يكشف عن مفاتنها. فألقت ليان نظرة خاطفة على تنورتها وسترتها ثم تساءلت إن كان يجدر بأمينة سر أن ترتدي ثوباً كالذي تلبسه انغريد، فقالت: «لن أتناول فطوري اليوم.»

اعترض كايل قائلاً: «لكنك لم تخرجي قط من دون أن تأكلي. أجلسي وتناولي معنا فنجانا من القهوة قبل أن تغادري.»

فتراجعت إلى الوراء وقالت: «أظن أنني تأخرت قليلاً، سوف أراكما لاحقاً. طاب يومكما.»

لم تدرك أنها كانت تقود قيادة سريعة إلا بعد أن اجتازت ثلاث سيارات مسرعة، فضغطت بقدمها على المكابح وخففت من سرعة سيارتها. لن تدع نفسها تخال كايل وانغريد جالسين بالقرب من بعضهما طوال النهار في المكتب، وإلا سوف تتعذب عذاباً شديداً.

كانوا يجلسون جميعاً على الشرفة في ساعة متأخرة من

بعد الظهر، قبل العشاء، فسألهما كايل ماذا تودان أن تشربا.

قالت له ليان: «شكراً لك، أنا لا أريد أي شراب.»

أما انغريد فضحكت له وقالت: «اشرب ما تقع عليه عينك كنت دائماً تعرف ما احب يا كايل.» استدارت انغريد نحو ليان حينما دخل كايل المنزل وقالت: «ما اروع هذا المكان! لا بد من أنك امضيت أياماً جميلة حينما ترعرعت هنا: «لقد أخبرني كايل الكثير عن هاي فالي على مدار السنين. إنه لا ينظر إلى المزرعة من منظارك أنت طبعاً، لكنه يحبها على ما أظن.»

«على أي حال، هذا سبب من الأسباب الذي حمله على شرائها حينما سنحت له الفرصة بذلك.»

قالت انغريد: «لا أنفك أذكر نفسي أنني أتيت إلى هنا بغية العمل، فأنا أشعر وكأنني أمضي أيام العطلة.»

سألتها ليان على سبيل المجاملة: «إلى متى ستبقين هنا؟»

«حوالي اسبوع.»

«أظن أنك تعرفين كايل منذ وقت طويل، أليس كذلك؟»

أجابتها انغريد بنبرة جافة: «أعرفه منذ بضع سنوات، منذ ثلاث سنوات على وجه التحديد.»

«هل كنت أمينة سر مكتبه منذ ذلك الحين؟»

«كلا، مضى وقت طويل لم نكن فيه سوى صديقين.»

«فهمت.»

قالت انغريد بالنبرة الجافة نفسها: «هذا هو الجواب الذي تريدين سماعه، أليس كذلك؟»

«هل تلومينني على فضولي؟ لم يمضِ وقت طويل على زواجنا، وأنا أجهل أخباراً كثيرة تتعلق بماضيه القريب مع انني اعرفه معرفة قديمة.»

انقطعت ليان عن الكلام لبرهة حتى تستعيد رباطة جأشها، ثم تابعت قائلة: «يبدو أنكما تعرفان بعضكما بعضاً معرفة جيدة.»

«أظن أن هذا واضحاً. حسناً يا ليان، لقد كنا صديقين حميمين حتى أني ظننت أننا قد... لكنه تزوجك، ولا بد من أنك تكتفين بذلك.»

«أجل، هذا صحيح.»

قالت ليان ذلك باقتناع لم تكن تشعر به قط، فسرت بعودة كايل إلى الشرفة بعد بضع لحظات، حتى لا تتمكن انغريد من التمادي في هذا الحديث.

لم تخبره بأمر الطفل في تلك الليلة. سوف تغادر انغريد هاي فالي بعد اسبوع، حينئذ، سوف تكون لوحدها مع كايل مجدداً، فتطلعه على الخبر.

انارت اشعة شمس الصباح أرجاء الغرفة، فاستفاقت ليان فجأة. ألقت نظرة على ساعتها فرأت أنها تناهز الثامنة. كان ينبغي عليها أن تستفيق منذ ساعة على الأقل، فلا بد من أنها ستصل متأخرة إلى العمل!

كانت على وشك أن تنهض من فراشها حينما تذكرت أن اليوم يوم السبت. عادت واستلقت على الوسادات وتمددت على الفراش، وما لبثت أن تذكرت أمراً آخر، سوف تغادر انغريد هاي فالي اليوم.

وإذ بها تنهض بسرعة، فمن المقرر أن يوصل كايل انغريد إلى المدينة كي تستقل الطائرة، وكان يتعين على ليان أن ترافقهما. وبعد أن يغادرا المطار، سوف يذهبان إلى شاطىء البحر، ثم يتناولان الغداء.

ضحكت ليان ضحكة ابتهاج وهي ترمي بالأغطية جانباً،

ثم نهضت وفتحت خزانتها وسحبت منها سروالاً فيه خطوطاً زهرية وبيضاء، وقميصاً زهرياً ملائماً.

كان خصر السروال مصنوعاً من خيط المطاط، لذا فهو يناسب ليان لأن بعض ثيابها بدأ يضيق عليها.

ذهبت إلى الحمام واغتسلت، ثم دخلت غرفتها مجدداً وفتحت النافذة على مصراعيها، وانحنت إلى الأمام كي تتنشق هواء الصباح النقي، فرأت شخصين يسيران معاً عبر غمرة من الشجيرات العالية في جانب الحديقة البعيد، وكانا غارقين في التحدث إلى بعضهما. إنهما كايل وانغريد، إلا أن هذه الأخيرة راحلة اليوم فلم تشعر ليان بأي خوف من تلك المرأة التي كانت صديقة كايل الحميمة.

كانت على وشك أن تحييهما حينما رأتهما يتوقفان، نظرت انغريد إلى كايل وتكلمت، فمد يده ولمس وجهها ثم جذبها إليه، فضمته بذراعيها، وقبلها على وجنتها.

لم تقو ليان على الانتظار كي ترى إن قبلها قبلة ثانية، فابتعدت عن النافذة وارتمت على السرير.

كايل وانغريد... بينهما علاقة حب لم تنته بزواج كايل وليان، بل تنتظر نهاية تمثيلية هذا الزواج. كم كانت ليان غبية حينما جعلت نفسها تصدق العكس.

أفاقت ليان من كبوتها، فوقع بصرها على الثياب الزاهية التي ألقتها على الكرسي، أعادتها إلى خزانتها وارتدت سروالاً قديماً وقميصاً بسيطاً.

كانت ليان قد لبست ثيابها وسرحت شعرها حينما دخل كايل الغرفة. كان يبدو في غاية الوسامة، فأحست ليان بأن قلبها يعتصر ألماً. دنا منها وقبلها على جبينها، فلم تأتِ

أية حركة، ثم انتصب وحدق إليها وقال متعجباً: «هل سترتدين هذه الملابس اليوم؟»

نظرت إليه نظرة جامدة وقالت له: «ألا تعجبك ملابسي؟»

«إنها ثياب لائقة إن امضينا اليوم في هاي فالي، لكن هل نسيت أن انغريد راحلة اليوم وأننا سنمضي يومنا في المدينة؟»

قالت بنبرة جافة: «لن أرافقكما يا كايل.»

«لا أفهم ماذا تقولين، لقد وضعنا خطة ليومنا.»

«لدي خطة أخرى الآن.»

«ألا تحفلين بأنني أتوق إلى قضاء النهار برفقتك؟»

كانت الدموع تخنق حلقها، فحاولت أن تكتمها، وقالت بهدوء: «أنا آسفة.»

«سوف تستغرب انغريد الأمر.»

«لن يطول استغرابها، سوف اودعها هنا قبل أن ترحل.»

دنا منها كايل وحاول أن يمسك يدها فابتعدت عنه.

«لماذا تتصرفين هكذا؟»

«أي تصرف؟»

«إننا متزوجان يا ليان.»

فذكرته قائلة: «بالاسم فقط.»

وقف كايل لبرهة، ثم قال لها قبل أن يخرج من الغرفة: «فليكن ما تشائين يا ليان.»

الفصل العاشر

ودّعت ليان انغريد بعد مرور ساعة.

سألت انغريد ليان: «ألن تبدلي رأيك وترافقينا يا ليان؟»

رأت ليان كايل يحدق إليها بعينين مجردتين، لا تعكسان أفكاره، فقالت بهدوء: «لدي عمل أنجزه هنا.»

شكرت انغريد ليان على ضيافتها، ثم قال كايل: «حان وقت الذهاب.»

ما إن توارت السيارة عن الأنظار حتى دخلت ليان المنزل واتجهت نحو غرفتها. وضعت حقيبتين على السرير وفتحت خزانتها وأخذت تسحب منها ملابسها، فانهمرت الدموع من عينيها وهي تحزم أمتعتها.

كانت آنّا في المطبخ حينما حملت ليان أول حقيبة إلى السيارة، فسرّت أن ترى باب المطبخ مقفلاً وهي تحمل الحقيبة الثانية. لقد كانت ليان تكن لمدبرة المنزل مودّة خاصة، فلم ترغب في إطلاعها على قرارها قبل أن تتحدث إلى كايل. فعزمت على أن تتصل بها بعد يوم أو يومين، وتشكرها على حسن معاملتها، وتودعها وداعاً صادقاً.

كان الجد ديبوا لا يزال مستلقياً على سريره حينما وصلت ليان إلى بيته الصغير، فدهش لمّا رآها وهي داخلة، وسألها: «ماذا تفعلين هنا؟»

«ألا آتي معظم الأيام لزيارتك يا جدي؟»

«لكنك لم تأتِ قط لتزوريني باكراً في صباح يوم من أيام

نهاية الأسبوع. ينبغي عليك الآن أن تكوني برفقة زوجك.»

أحست ليان بالدموع تطفر من عينيها لكنها حاولت أن تكتمها ثم قالت بصوت حاد: «قل لي يا جدي، لِما لم تنهض من فراشك... لا، لا داعي إلى ان ترتدي ملابسك أولاً... سوف أحضّر بعض الفطور.»

لقد آثرت أن تلوذ بالفرار إلى المطبخ قبل أن تطفر الدموع من عينيها مرة ثانية، على رغم الغثيان الذي كان ينتابها كل صباح. فلا داعي إلى ان تبكي أمام جدّها لأنه سيطرح عليها أسئلة لم تكن مستعدة بعد للإجابة عنها.

وضعت القهوة على النار وسخنت قطعتين من الخبز وأرغمت نفسها على تحضير العجة التي يحبها جدها.

كان الفطور جاهزاً حينما دخل العجوز المطبخ، وكانت ليان قد استعادت بعضاً من رباطة جأشها.

جلسا معاً إلى الطاولة المستديرة، فراح العجوز ديبوا يأكل العجة التي حضرتها له ليان. أما هي، فاكتفت بارتشاف بعض الشاي، فعادت بها الذكرى إلى الأيام الغابرة، أيام كانا يتناولان دائماً الطعام معاً. أما الآن، فقد تغيرت الأمور، فهي امرأة متزوجة تركت زوجها من دون علمه، وجاءت لتعيش مع جدها من دون علم هذا الأخير أيضاً.

سألها الجد ديبوا بعد ان أنهى طعامه: «هل زوجك منشغل في المزرعة؟»

«كلا، لقد ذهب إلى المدينة.»

«لم أكن على علم بأن كايل يعمل في نهاية الأسبوع.»

«ذهب ليوصل أمينة سر مكتبه إلى المطار، تلك المرأة التي كانت تمكث معنا، انغريد ميسي.»

«ألم ترغبي في مرافقته؟»

«كلا، لم أرغب في مرافقته.»

«كان بوسعكما ان تمضيا اليوم معاً.»

«أجل، لكنني لم أرغب في ذلك أيضاً.»

نظر إليها جدها نظرة فضول خاطفة، ثم وقف وشكرها على الفطور وقال لها إنه ذاهب لارتداء ملابسه.

تجاهلت ليان انزعاجها، فغسلت الصحون ونظفت المطبخ. ما إن أنهت عملها حتى خرجت إلى المصطبة، وما لبث جدها أن انضم إليها. جلسا معاً وهما ملتزمان الصمت. كان الجد ديبوا ينفث دخان غليونه، أما ليان، فكانت تسمر عينيها بإحدى الصحف وتتظاهر بأنها تقرأها.

لم تتفوه بكلمة إلا حينما تأكدت من أنها قادرة على التكلم من دون أن تبكي، فقالت: «أود أن أمكث هنا الليلة إن لم يكن لديك مانع يا جدي.»

«الليلة فقط؟»

«كلا يا جدي.»

«كم ليلة تقصدين يا ليان؟»

«بضع ليال.»

«ليلتان؟ ثلاث ليالٍ؟»

«أكثر من ذلك.»

«فهمت الآن.»

«هل لديك مانع يا جدي؟»

لكن الجد ديبوا بقي صامتاً. كان ينفث دخان غليونه ويسرح النظر في الحقول، فبدأت ليان تشعر ببعض التشنج، ثم قال لها: «كلما تقدم المرء في السن، كلما زادت حكمته،

فيدرك أنه يجهل الأمور التي كان يظن أنه يعرفها.»

حاولت أن تقول له بلهجة مازحة: «يا لأفكارك العميقة!»

«أنا أحاول أن أقول لك إنني أخطأت في بعض الأمور.»

«آه؟»

«لا داعي إلى ان أخبرك كم أغضبتني عودة كايل إلى حياتنا، فوقع عليّ خبر زواجكما وقوع الصاعقة. ليان... هل تصغين إليّ يا صغيرتي؟»

«أتساءل لماذا لم تجبني عن سؤالي.»

«أنا رجل عجوز وعنيد، وليس من السهل عليّ القول انني أخطأت ظناً بكايل آفيري.»

مدّت ليان يدها وكأنها تريد أن تصد تدفق الكلمات من شفتيه، لكن الجد تابع قائلاً: «لقد بدأت أحترمه يا ليان، فقد أخطأت حينما ظننت أنه رجل حقير. كايل آفيري رجل طيب وشهم، وهو يذكرني بوالده. إنه الرجل المناسب لهاي فالي، وأنا أرى الآن أنه الرجل المناسب لك أيضاً.»

قالت له: «لِمَ تقول لي هذا الكلام الآن؟»

«يحدثني شعور بأنكما لستما على اتفاق مع بعضكما.»

«جدي...»

«لا أريد أن أسمع منك جواباً، ولا أرغب في أن أكون لك واعظاً، أود فقط ان تعلمي بأنني أحب زوجك.»

لم تتمكن ليان من التفوه بكلمة، فنفث العجوز دخان غليونه وركل كلبه وكأنه لم يتوقع أي إجابة.

وصل كايل بعد بضع ساعات. كانت ليان تعلم بأنه سيأتي. ليتها تستطيع أن تقطع صلتها بالرجل الذي تحب، لكن، ولسوء الحظ، هذا أمر مستحيل بوجود الطفل، فسوف يصرّ

كايل على تأدية دوره كأب، وكانت ليان تعلم بأنها لن تستطيع أن تمنعه من ذلك، وبأنها لن تقوى على حرمان طفلها العيش مع أبيه. إلا انها كانت تتألم تألماً شديداً كلما خالت نفسها ترى كايل برفقة انغريد ميسي شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام.

نظرت ليان إلى كايل وهو يصعد إلى المصطبة فرأته منقبض الأسارير، ثم وقف أمامها وقال من دون أن يلقي تحية مهذبة: «يجب أن أتحدث إليك يا ليان.»

انتصب الجد وقال: «أنا داخل البيت.»

«لا داعي إلى أن تتصرف هذا التصرف يا جدي.»

نظر العجوز إلى الوجهين المكفهرين وقال: «أظن أنه من الأفضل أن أفعل ذلك.» ثم دخل البيت.

قال لها كايل بنبرة قاسية: «لم تكلفي نفسك عناء إعلامي بأنك تركت المنزل.»

«أنا نفسي لم أتخذ هذا القرار إلا باكراً هذا الصباح. لم يكن بوسعي أن أعلمك به أمام انغريد.»

«ألم تفكري بالشعور الذي انتابني حينما عدت ووجدت أنك قد رحلت من دون أن تكتبي لي كلمة واحدة؟»

«أنا آسفة، لكن هذه هي طريقتي.»

«إننا متزوجان يا ليان.»

«هل نحن متزوجان فعلاً؟»

«أجل، نحن حقاً متزوجان، ويجدر بك، بصفتك زوجتي، أن تعيشي معي تحت سقف واحد.»

قالت له بفظاظة: «حتى ولو كان زواجنا تمثيلية؟»

«لقد كان دائماً خاضعاً لبعض الشروط، وأنت من وضع هذه الشروط يا ليان.»

«لم يكن هذا الزواج ليدوم.»

«لقد قلت إنه سيدوم لبضع سنوات يا ليان، لماذا أردت ان تتركيني الآن ولم تمضِ ثلاثة أشهر على زواجنا.»

«لم أدرك كم كانت الحياة صعبة معك.»

«إلى هذا الحد؟»

«أجل.»

«كان يجدر بك أن تدركي ذلك حينما طلبت مني الزواج.»

«أنت تعلم لمَ طلبت منك الزواج.»

قال لها بصوت جاف: «أجل، انني أعرف السبب.»

رأته ليلين يسرح النظر في الحقول الواقعة خلف السياج، فهمست إليه قائلة: «هل تقصد أنك ستباشر تنفيذ المجمع التجاري إن لم أعد إليك؟»

نظر إليها كايل وهو يلتزم الصمت. لكن ليان أصرت على سؤالها، فقالت: «هل ستباشر فعلاً تنفيذ مشروعك يا كايل وبناء ذاك المجمّع؟»

ظل كايل صامتاً، فسألته مجدداً: «لِمَ لا تجيب عن سؤالي؟»

«ولِمَ أجيب؟ فأنت تعرفين الأجوبة كلها، وقد كنت دائماً تعرفينها، أليس كذلك؟»

وقفا يحدقان إلى بعضهما بعضاً وكأنهما عدوان لدودان لم تجمع بينهما عاطفة ولا مودة.

قال لها بنبرة قاسية: «سوف أدخل وأجلب حقائبك.»

«لا تزعج نفسك، ما زالتا في سيارتي.»

«لا داعي إلى إضاعة الوقت يا ليان، فلنذهب من هنا، لقد قلت لأنّا اننا سنصل إلى المنزل وقت العشاء.»

تناولا العشاء في جو متجهم وصامت. لاحظت ليان أن

كايل لم يبدِ شهيته المألوفة إلى طعام آنّا اللذيذ، أما هي، فاكتفت بأن تلعب بالطعام المسكوب في صحنها.

بعد العشاء، ذهبت ليان مباشرة إلى غرفتها. كانت حقيبتاها لا تزالان ملقيتين على السرير الواسع، وكان باب خزانتها مفتوحاً قليلاً كما تركه كايل بعد ان عاد إلى المنزل وعلم بأنها رحلت.

فرّغت ليان حقيبتيها على مهل وباشمئزاز، وعلقت ثيابها في الخزانة ووضعت أغراضها في الأدراج، ما إن انتهت حتى ألقت نظرة على ساعتها. لقد كان الوقت مبكراً للنوم. يا للسهرة الطويلة والمملة التي ستمضيها قبل أن تأوي إلى الفراش!

خرجت من الغرفة، فلاحظت أن آنّا قد تركت المطبخ وأن كايل لم يكن في الجوار. ذهبت إلى المكتبة وأخذت الرواية التي كانت قد بدأت مطالعتها الأسبوع الماضي.

كانت قد أمضت ساعة على الأقل وهي تحدق إلى الصفحة نفسها من دون أن تقرأ حرفاً حينما دخل كايل المكتبة، فقال لها معلقاً: «كم تبدين منسجمة بالقراءة!»

رفعت إليه ناظريها فرأته واقفاً بالقرب من كرسيها وقد حجب عنها الرؤية، قالت بهدوء: «إنني أستمتع بالرواية.»

«أريد أن أستمتع بوقتي مع زوجتي.»

كادت ليان أن تختنق، فصاحت به قائلة: «كلا!»

لكنه أمسك بيديها، فاعترضت ليان وقالت: «آنّا...»

«آنّا ليست هنا. إننا لوحدنا يا ليان.»

«ربما، لكن...»

«لم نمضِ معاً أوقاتاً هادئة مذ كانت انغريد هنا.»

«لا يمكنك أن تلقي اللوم عليّ، على أي حال...»

قال لها بفظاظة: «أنت تكثرين الكلام...»

ثم جذبها إليه وقبلها، لكنه ما لبث أن أفلتها، فراح ينظر إليها، ثم قال: «كم أنت جميلة!»

«كايل...»

إذ بوجه انغريد يرتسم في ذهن ليان، فتصوّرت مرة أخرى كايل وانغريد في الحديقة وهما يتعانقان.

هزّت برأسها هزاً عنيفاً وقالت: «لا أريد...»

حاول كايل أن يمسك بيديها مجدداً، لكنها ابتعدت عنه وهي ترتجف، ثم قالت له: «دعني وشأني يا كايل!»

«لا يمكن أن تكوني جادة في ما تقولين. أنت أيضاً تريدين ذلك يا ليان.»

«كلا، أنا لا أريد ذلك.»

«أرجوك يا حبيبتي...»

حاول أن يضمها بذراعيه لكنها أجفلت وقالت له: «هذه الأوقات لا تعتبر أوقاتاً حميمة، إنها حيلة...»

«إن حبنا صادق يا ليان.»

«أنت لا تحبني يا كايل.»

«لقد كنت تستمتعين بهذه الأوقات يا ليان، لا تحاولي أن تنكري ذلك، فكلانا يعلم أنك تكذبين.»

«لا أستطيع أن أنكر ذلك، لكنني سوف أعيش لوحدي ذات يوم، وسوف أشعر بانني لم أكن سوى لعبة رخيصة بين يديك.»

«لكننا متزوجان يا ليان.»

«إن حياتنا ليست حياة زوجية طبيعية.»

ابتعد عنها كايل فجأة، وقد علت امارات الازدراء وجهه،

فانقبضت أسارير ليان، لكن هذه الأخيرة بدأت تقول له بصوت يائس: «يجب أن تفهم...»

«أنا أفهم انك تثيرين اشمئزازي.»

قال ذلك بنبرة قاسية، ثم خرج من المكتبة.

في اليوم التالي، جاءها اتصال هاتفي وهي في المصنع.

«سيدة آفيري؟»

«نعم؟»

«ليان آفيري؟»

«نعم، من المتكلّم؟»

«هنا المستشفى. أخشى أن يكون...»

«ماذا حصل؟»

«لقد وقع حادث و...»

«حادث؟»

شحبت وجنتا ليان خلال لحظة: «أين؟ ماذا حصل؟ زوجي؟ هل أصيب كايل؟»

«لقد شبّ حريق في بيت جدك.»

كان المتكلم الغريب يتحدث بلطف، فقالت له ليان: «جدي؟ هل هو بخير؟ لا تقل لي إنه...»

«إنه بخير يا سيدة آفيري، وسوف يكون بحال أفضل إن لقي بعض العناية.»

«حسناً!»

لكن المتكلم تابع قائلاً: «أخشى أن تكون حال زوجك أسوأ، لكن الأطباء قالوا إنه سيتحسن.»

«زوجي؟ كايل؟ ماذا تقول؟»

«لقد كان هناك عند اندلاع الحريق.»

«يا للمصيبة!»

«هل بوسعك ان تأتي إلى المستشفى يا سيدة آفيري؟ أو هل بوسع أحد أن يوصلك إلى هنا؟»

انتصبت ليان بسرعة. وقالت: «سوف أصل حالاً إلى هناك.» وخرجت مسرعة من غرفتها.

كانت ستقود سيارتها بنفسها إلى المستشفى، لكن أحد المدراء رآها وهي خارجة من المصنع ومتجهة إلى موقف السيارات ولاحظ اضطرابها، فأمسك بذراعها وأصرّ على إيصالها إلى المستشفى.

وصلا إلى هناك في غضون دقائق. ذهبا إلى قسم الطوارىء، فقابلت ليان الممرضة التي قالت لها إن بإمكانها أن ترى جدها، لكن لن تتمكن من رؤية زوجها في الوقت الحاضر.

«لقد أصيب السيد آفيري بضربة مؤذية في الكتفين. إنه يخضع الآن لعلاج بالأشعة السينية كي نكشف إن كانت إصابته خطرة.»

اكفهرت سحنة ليان، فسألت الممرضة: «هل هو بخير؟»

أجابتها بلهجة مطمئنة: «سوف يكون بخير.»

كان الجد ديبوا هيكلاً نحيلاً راقداً في سرير المستشفى. حينما دخلت ليان غرفته ظنت أنه نائم. دنت منه وأمسكت يده برفق، ففتح عينيه وقال: «صغيرتي...»

«هل أنت بخير يا جدي؟»

«أجل، هذا بفضل كايل. سوف أغادر المستشفى الليلة. ما كان يجب أن يحصل ما حصل. كم أنا آسف يا ليان!»

جلست على كرسيّ قريب من السرير ثم قالت: «لست على

علم بما حصل. علمت فقط باندلاع حريق، هذا كل ما أخبروني به.»

قال جدها بصوت حزين: «إنه غليوني، ذاك الغليون المشؤوم الذي كنت دائماً تحذرينني منه. كنت أدخن في غرفة الجلوس، لا بد من أنني وضعته في مكان غير مناسب، فبدأ يحترق ثم ما لبث ان اشتعل.»

«هل غلبك النعاس؟»

«ليس تماماً.»

حوّل العجوز نظره، وكأنه يتهرّب من النظر إلى عينيها، فقالت له ليان: «يحدثني شعور بأنك تخفي عني خبراً ما.»

«كنت أفكر فيك وفي كايل، في الخلاف القائم بينكما، فشعرت بأنني أنا المسؤول، أنا المذنب...»

طمأنته ليان: «لا دخل لك في موضوع خلافنا يا جدي.»

«لا أنفك أفكر أن الأمور كانت مختلفة لو لم أظلم كايل، وكنت مستغرقاً في أفكاري، فنسيت الغليون. كم أنا آسف يا صغيرتي!»

«لا بأس يا جدي، المهم هو أن تكون بخير.»

قال لها جدها: «لقد أنقذ كايل حياتي.»

«كيف؟»

«لقد كان في الجوار حينئذٍ، أظن أنه كان يصلّح السياج، فلا بد من أنه رأى الدخان يتصاعد. أذكر أنه دخل البيت راكضاً. كدت أختنق، فرفعني بذراعيه وحملني إلى الباب. ما إن خرجنا من البيت حتى سقطت عليه قطعة من الخشب، أظنها الدعمة، وأصابته.»

«هذا ما حصل إذاً...»

«هل قابلته يا ليان؟»

«كلا، لم أقابله بعد، ما زال الأطباء يعالجون كتفيه، فالظاهر ان الدعمة سقطت عليهما.»

سألها العجوز بصوت قلق: «كيف حاله الآن؟»

«يقولون إنه سيكون بخير.»

«آمل ذلك.»

قالت له ليان بهدوء: «آمل ذلك أيضاً يا جدي.»

ما إن أعطي جدها تصريحاً بمغادرة المستشفى حتى قادته ليان مباشرة إلى هاي فالي، فهي لن تدعه وحيداً حتى وإن كان البيت الصغير صالحاً للسكن. انتظرت حتى لازم السرير في غرفته القديمة، وتركته بين أيدي آنّا الأمينة، ثم عادت إلى المستشفى.

كان كايل يخضع لعناية خاصة، وكان وجهه مخدّشاً أخداشاً طويلة، وكانت ذراعه وكتفه مضمّدتين.

جلست ليان إلى جانبه. حاولت أن تكلمه، أن تشكره على إنقاذه حياة جدها، لكن أجوبته كانت مختصرة، متقطعة، وغير مبالية. أخبرته ليان بأن البيت الصغير بحاجة إلى ترميم، وبأن جدها سوف يعود إليه حينما يصبح صالحاً للسكن، لكنها دعته إلى أن يمكث معهما في هاي فالي إلى أن تنتهي أعمال الترميم، فسألت كايل قائلة: «هل لديك مانع يا كايل؟»

«كلا.»

«إنه ممتنّ لك كل الامتنان لأنك أنقذت حياته.»

«قولي له ألا يفكر في ذلك.»

«إنه متأكد من أنه مصدر مشاكلنا، وهو يريد أن يلتمس منك الاعتذار.»

«هذا ليس مهماً.»

«لكنه مهم بالنسبة إلى جدي، وبالنسبة إليّ أيضاً.»

«ليس مهماً بالنسبة إليّ يا ليان.»

«طابت ليلتك. سأراك غداً صباحاً.»

قادت ليان كايل إلى هاي فالي بعد مرور يومين. لقد أمسى شخصاً غريباً هجرته الحيوية وفارقه الحماس. كانت جراحه قد اندملت، وقد صرّح الأطباء أنه شفي شفاءً تاماً. حينما يحل الظلام، كان كايل ينام في السرير قرب ليان من دون أن يأتي بحركة، وكأنه قطعة خشب مجرّدة من أي شعور أو إحساس.

مضى أسبوع وهو على هذه الحال، وفي ليلة، انتظرت ليان حتى استلقى كايل على السرير، وأطفأت النور. انتظرت لبضع دقائق، ثم دنت منه، فأدار وجهه نحو الحائط، فاقتربت منه أكثر فأكثر وغمرته، فسألها بصوت جاف: «ماذا تفعلين؟»

همست إليه قائلة: «ما تظنني أفعل؟»

«ربما كنت مخطىء الظن.»

«لست مخطئاً هذه المرة.»

«لماذا؟» كان لا يزال ينظر إلى الحائط.

«لأنني أريده أن يستعيد نشاطه وحيويته، فهو، مهما يكن، والد طفلي.»

قال مندهشاً: «ماذا تقولين يا ليان؟»

شعرت ليان بالاضطراب لكنها حاولت أن تقول بهدوء: «سوف نرزق طفلاً يا كايل.»

«أنت حامل؟»

بدا كايل مذهولاً وكأنه يصعب عليه استيعاب الخبر، فقالت له بصوت مرتجف: «أجل، أنا حامل.»

«ليان... هل هذه خدعة؟»

«لا يمكن أن أكون شريرة إلى هذا الحد.»

«لا أدري ما أقول... ما أصدق...»

لم ترَ ليان كايل في حياتها وهو مضطرب هذا الاضطراب، فأمسكت بيده ووضعتها على بطنها وقالت: «إن طفلنا ينمو ههنا يا كايل، أجل، سوف تشعر به وهو يتحرك بعد بضعة أشهر.»

«آه يا ليان!»

كان صوت كايل مشحوناً بالعاطفة، فقالت له بعفوية: «سوف تصبح أباً يا كايل، كايل، ألن تدير رأسك وتنظر إليّ؟»

أدار رأسه وضمها بذراعيه لبرهة، ثم أفلتها وسألها: «متى علمت بالأمر؟»

«منذ بضعة أسابيع.»

«ولِمَ كتمت عني الخبر حتى الآن؟»

قالت له: «لقد حاولت أن أخبرك.»

«كلا، لم تحاولي.»

«لقد حاولت فعلاً يا كايل. كنت على وشك أن أخبرك يوم تأكدت من الأمر، لكنك كنت منهمكاً بعملك، كان بالك مشغولاً بأمور أخرى، وكنت تستعد للسفر، ألا تذكر ذلك؟»

«تذكرت الآن أنك قلت لي إنك تريدين أن تخبريني بأمر ما، ولكن قلت لي ان الأمر يمكنه الانتظار.»

«ظننت أنه من الأفضل أن أنتظر عودتك، لم أتوقع قط أن انغريد ستأتي معك، ثم انشغلت معها، فقررت أن أنتظر حتى نصبح لوحدنا مجدداً، فأخبرك حينئذٍ.»

«وماذا فعلت حينما رحلت انغريد؟ تركتني، لم أستطع أن أصدق عيني لما رأيت خزانتك فارغة وأدركت أنك رحلت.»

«لكنك أعدتني فوراً إلى المنزل.»

تنهد عميقاً وقال لها: «ما زلت أجهل سبب رحيلك.»

«لقد رأيتك مع انغريد، رأيتك وأنت تقبلها.»

«أنت مجنونة! أنا لم أقبلها قط!»

«لقد رأيتك بعيني يا كايل يوم غادرت انغريد هاي فالي، اتفق لي أن وقفت بالقرب من النافذة في ذلك الصباح، فرأيتكما وأنتما تسيران في الحديقة، ثم غمرتها وقبلتها.»

قال لها بصوت مندهش: «تلك القبلة؟»

«أجل.»

«إذاً، هذا هو السبب الذي حملك على عدم مرافقتنا إلى المطار يومذاك.»

ضحك ضحكة رنانة وتابع قائلاً: «لم تكن تلك القبلة قبلة حب يا ليان. كنت أحاول أن أقنع انغريد بأن تتلقن دروساً خاصة بإدارة الأعمال، فأخبرتني حينئذٍ أنها ستستقيل من الشركة كي تتفرّغ لدروسها، فقبلتها قبلة صديق يتمنى لصديقته حظاً سعيداً.»

همست إليه ليان: «هل تعني أنني كنت غبية؟»

«أنا أعني أنك أسأت فهماً.»

أمسك بيدها وتابع قائلاً: «لقد قلت لي إنك تحاولين إغرائي لسببين: الأول أنني سأصبح أباً، فماذا عن السبب الثاني؟»

قالت له ليان بعفوية: «لأنني أحبك، هذا هو السبب الرئيسي.»

شد يده على يدها وقال لها: «قولي لي ذلك مرة ثانية.»

«أحبك يا حبيبي، لقد كنت دائماً أحبك، فأدركت أنني لن أدع انغريد تسلبك مني من دون أن أكافح.»

جذبها إليه وقال لها: «لا داعي إلى المكافحة يا ليان.»

«لقد أخبرتني انغريد بأنكما كنتما صديقين حميمين خلال فترة من الفترات، وقد لمّحت إلى أن علاقتكما كانت جدية.»

قال كايل بهدوء: «هذا صحيح، وقد جعلت نفسي أصدق بأننا سنكون سعيدين معاً، لكن سرعان ما أدركت أنني كنت أخدع نفسي، وأنني كنت أحب امرأة فريدة، وأخبرت انغريد بأنني سأعود إليها، وبأنني سأفعل المستحيل كي أتزوجها.»

سألته ليان مذهولة: «هل تقصد أنني أنا تلك المرأة؟»

«ومن غيرك يا حبيبتي؟ لماذا، برأيك، عقدت العزم على العودة إلى هاي فالي؟»

«لكنك تزوجتني لأنك أردت أن تنتقم من جدي.»

«هذا ما ظننته أنت، أنا لم أقل ذلك قط يا ليان.»

قالت له بنبرة اتهام: «لكنك لم تنكره قط.»

«لأن ذلك كان السبيل الوحيد للزواج بك.»

«هل أردت أن تبني مُجمع المزارعين كي تؤذي جدي؟»

«أنت مخطئة يا ليان. أنا رجل أعمال يا حبيبتي، وقد ارتأيت أنه من الأفضل استثمار تلك الحقول تجارياً لا زراعياً، لا دخل لجدك في الموضوع. حينما عرضت عليّ الزواج لقاء أن أبدل رأيي في ما يتعلق بالمركز التجاري، لم أتمكن من الرفض، وإلا كنت أزكيت الحقد بيننا. أملت أن تبادليني حبي إن تزوجتك. لقد كنت دائماً تطلقين على زواجنا اسم تمثيلية، لكنه لم يكن تمثيلية بالنسبة إليّ. لم أكن لأدعك ترحلين بعد عدة سنوات. لقد كانت كل كلمة تفوهت بها خلال مراسم الزواج نابعة من صميم قلبي.»

قالت له ليان بصوت عذب: «وأنا كذلك يا كايل.»

«أحبك يا ليان، لقد أحببتك لما كنت فتاة بريئة، وإنني أحبك الآن أكثر وأكثر.»

لم تكن ليان تدري أنها ستكون سعيدة كل هذه السعادة، لكنها كانت لا تزال تجهل سبب تصرف كايل الفظ خلال الآونة الأخيرة، فسألته: «لقد كنت تتصرف تصرفاً غريباً طوال هذا الأسبوع، منذ أن غادرت المستشفى يا كايل، فقلّما تحدثت إليّ، وقلما حاولت أن تتقرّب مني.»

قال لها: «كان الكيل قد طفح يا ليان. لا يمكنك أن تتصوري كم تألمت حينما تركتني وذهبت لتعيشي مع جدك. لقد عدت إليّ فعلاً، لكن فقط لأنني أكرهتك على العودة. حينئذٍ بدأت أصدق فعلاً أن زواجنا لم يعنِ لك شيئاً.»

«أنت مخطىء يا كايل. لقد سررت سروراً عظيماً حينما علمت أنني حامل.»

«سوف نكون أفضل والدين في العالم!»

تمتمت ليان قائلة: «أحبك يا حبيبي.»

«وأنا أحبك يا حبيبتي. هل لديك أدنى فكرة عن الشعور الذي كان يخالجني طيلة الأسبوع المنصرم وأنا نائم إلى جانبك، وأرغب في أن أضمك بين ذراعي، وأنا مقتنع في الوقت نفسه بأنك تخليّت عني؟»

قالت له بصوت عذب: «ولمَ لا ترغب الآن؟»

دجا الليل وبزغ الفجر والحب لا ينفك يجمع شملهما...

تمـــــت